

الوعي والوعي الذاتي عند الإنسان

رؤية علمية - فلسفية

محمد الشامي (*)

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ، إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ
وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ (الإسراء، 36).

I - مقدمة

الإنسان وجود حيّ وفعل، ينسج مع محيطه الكوني علاقات متحركة، يستقرىء الموجودات ويستنبط ويبتركر مستخدماً واسطة معقدة جداً وحساسة هي الدماغ الذي يعكس نشاطات الإنسان المبدعة، ويميزه عن سائر الكائنات بتلك الملكة المذهلة وهي الوعي الذي يضعه في أعلى مرتبة في الوجود من حيث القدرات والاستعدادات العقلية والفكرية.

لم يتوقف الإنسان لحظة منذ فجر التاريخ عن البحث والتقصي عن سرّ الحياة وطبيعة الوجود بشكل عام، مع ما يتضمن من مراتب وتركيبات تختلف في الوظائف والأشكال وتتكامل وتتفاعل في ما بينها بانسجام تام ومدهش.

ولقد استخدم الإنسان في بحثه عن المجهول وسائل متعددة، بادئاً بالتأمل والاستدلال، ومتطوراً إلى استخدام الأجهزة والتقنيات العلمية الحديثة. وأدّى تطور العلوم إلى قفزات نوعية في حقل الاكتشافات، حيث ظهرت نظريات جديدة لتستبدل وتغيّر ما كان قبلها، وتداخلت العلوم ومداركها، فنشأ علم الإناسة والأحياء، والالسنية وعلم والإبيستمولوجيا...

وأحدثت الفيزياء الحديثة ثورة في العلوم من حيث إنها باتت تقرّ بأن المراقب، قد أصبح في فيزياء الكم عنصراً أساسياً في صياغة مفهوم الواقع ومادته. لقد أصبح الإنسان مشاركاً في مسرحية كونية عظيمة، يبدو أنها قد صُممت بحيث تؤدي إلى خلق كائنات واعية، في مكان ما من الكون الممتد⁽¹⁾.

(*) طبيب وباحث موسوعي في العلوم الإنسانية - لبنان.

(1) انظر توطئة جان أكس في كتاب: «العلم في منظوره الجديد»، عالم المعرفة، العدد 134، الكويت، 1989، صفحة 12.

ولكن القفزة الهائلة قد تمت في إطار علم الأحياء الذي لا يزال يدهش العالم في اكتشافاته خصوصاً بعد اكتشاف المورثات (الجينات) والصبغيات في نوى الخلايا، وأعجوبة علاقاتها بتنظيم الجسم وإنتاج عناصره.

تُظهر حيثيات الخلية الحية ونوازعها دقة في التنظيم، وتفاعلات منطقية محسوبة ومدروسة، مما يجعلنا نستنتج أن ثمة عقلاً خفياً مدبراً، عقلاً ناقلاً للمعلومات الدقيقة التي تتناولها الخلية بتفاعل ديناميكي وتتكيف معها بل وتعديلها أحياناً وتبتكر آليات دفاعية إبداعية، وعلى عكس ما كان شائعاً في العلوم الوضعية، يبدو أن غائية تتحكم في تنظيم المادة الحية فهي تسير باستمرار نحو هدف محدد، يعيد إنتاجها، ويفعل ظواهرها بطريقة خلاقة، ويشي هذا «الوعي» الداخلي بوجود عقل مبرمج يدير كل عملياتها الفيزيولوجية، فالكائن الحي يمثل تنفيذاً لخطة تؤدي إلى التوالد.

إلا أن الاكتشافات المذهلة لوظائف الجهاز العصبي والدماغ تركز على تفسير ظواهر الجهاز العصبي من خلال التشريح الدقيق لبنياته العضوية، لتوضح آليات الإدراك الحسي بما هو إدراك لمواضيع متحققة في الوسط الخارجي، ولكن فيزيولوجيا الأعصاب تثبت أيضاً أن الواقع يتحقق موضوعياً من خلال المراقبة والطريقة التي يعقل بها المراقب هذا الواقع.

إن العلم هو معرفة الواقع واكتشاف قوانينه «وأن هذه المعرفة هي نشاط إنساني، والنشاط الإنساني هو رابطة خاصة بين الذات والموضوع»⁽²⁾. ذلك أن آلة المعرفة هي الإنسان وهو كينونة واعية لذاتها ولوجودها ولعلاقاتها مع المحيط، وأن هذه الكينونة ليست آلة صماء بل هي تحسّ وتعقل وتتخيل، ولا يمكن اعتبارها أداة محايدة لقياس الواقع الموضوعي مطلقاً.

إن المعرفة الإنسانية ليست مجرد طبع ذهني للمدركات، بل هي طبع يولد انطباعات وأثراً، تفعل فيهما الذات فعلها الخاص، فينتج عنها معرفة تصور المادة وأبعادها ومعانيها، ولا يغيب الخيال كملكة عقلية نفسية إذ يسم المدركات بخصائص حسية تجعل منها صوراً تقرب إلى الوهم، لأن النشاط الإنساني التفاعلي يدمج التأمل والتبصر في معطيات الواقع حيث تحدّد الذات المدركة أبعاد الواقع وتعطيه مضموناً تاريخياً وتعيّن المكان والزمان، وأن كل نظرة إدراكية (وأن كل نظرة هي إدراكية)، هي علاقة للذات بموضوعها ومثبتة علمياً، مهما كانت نتائجها لأنها تعكس حقولنا الإدراكية أي تاريخية الإدراك نفسه، ما دامت تبني من هذه المحصلات سلوكاً ملائماً وناجحاً (بمعنى إدراكي متفاعل كسياق وإع وليس بالمعنى الذرائعي السلوكي).

إن الكينونة الإنسانية تشمل الماهية كضابط مراقب لأثر المحسوسات والمدركات، تدرج المعطيات الخارجية في البعد الفلسفي الأخلاقي فتولّف الواقع توليفاً ذاتياً؛ فالكينونة هي التي تصف وترتب وتصنف الموجودات، وتُظهر المعاني والكليات وتعطيها صفة الاستمرار والديمومة من خلال تعقلها وإدراكها.

ينتج عن هذا كله، أن الاختلاف بين الثقافات هو اختلاف في الحقول الإدراكية للبشر، أي اختلاف في طريقة تناولهم للواقع، وتصبح المفاضلة بين الثقافات من مفاعيل الحقل الأخلاقي وسلم القيم الذي يعيّن قربنا أو بعدنا عنها.

(2) راجع كتاب: محمد عابد الجابري: مدخل إلى فلسفة العلوم، مركز دراسات الوحدة العربية، 1994، ص 43.

فكيف تطوّرت المعرفة البشرية تاريخياً؟ وما هو دور الذات في تحقيق المعرفة الموضوعية؟ وما هو الجهاز العصبي والدماغ؟ وكيف تستخدمهما النفس في استنباط قوانين الواقع؟ هذا ما سوف نراه في هذا البحث العلمي الفلسفي الذي يهدف إلى توضيح مفهوم الوعي والوعي الذاتي من منظور علمي وفلسفي.

II - تطور الوعي عبر التاريخ

تطور الوعي الإنساني عبر التاريخ، إذ انتقل الإدراك من القصد اللاواعي إلى القصد الواعي، وقامت الحضارة على مجموعة العلوم والتقنيات التي مهما كانت بدائية فإنها عكست محاولات الإنسان الدؤوبة لاكتشاف الوجود والكون، وتأسست الثقافة على مجمل البنيات الفكرية والفلسفية التي يتداولها البشر في علاقاتهم الاجتماعية. فلقد نهضت الثقافة على وعي جماعي يسهّل تداول القيم والأعراف ضمن سَلَم أخلاقي شكّل دائماً حقلاً إدراكياً وفلسفياً للإنسان في علاقته مع الوجود والطبيعة.

ظَلَّت المشكلة الأساسية للمعرفة الإنسانية هي مدى قدرة المعطيات الحسية على خلق الوعي العقلي وقدرة الإدراكات العقلية على إثبات الحقيقة الموضوعية، ذلك أن المدركات العقلية لا يغيب عنها الخيال بل يقع في صلب ألياتها الدماغية مما يجعل الإدراك حقلاً معرفياً تبنيه الذات البشرية وتتفاعل من خلاله مع المدركات ليصبح الوعي تالياً مرآة للذات والموضوع في آن معاً.

أما متحركة اللاوعي فقد شكلت الثقافة ضابطاً لها ومراقباً لمدى تأثيره على الوعي، حتى إننا نستطيع القول: بأن اللاوعي اصطلاح معرفي يُقصد منه مجموعة الغرائز الدفينة والطاقات الموروثة أو الطبيعية التي يستحيل الإجتماع البشري معها إلا من خلال تنظيمها وضبطها من قبل الثقافة مهما كانت طبيعة وأخلاقية هذه الثقافة.

وسنعرض سريعاً أهم المحطات التاريخية لتطور المعرفة الإنسانية، مختصرين لأن هذا البحث لا يتسع للشمولية.

1 - الوعي البدائي

تميّز الوعي البدائي باستخدام المخيلة بشكل عام، فكان إدراك الإنسان البدائي ذا سمات خاصة منها:

- أن الأشياء هي قوى تؤثر على الإنسان، فقام هذا الأخير بتجسيمها.
- أن الفرد معادل للجماعة ويحمل صفات أو ميزات يتحلّى بها الأفراد الآخرون أو حتى الجماعة كلها.
- وبما أن الخيال والحس هما في أصل تكوين النفس وقدراتها العقلية، لذلك استند الوعي البدائي إلى ملكة الخيال ليفسّر الظواهر من حوله. «ولم يستطع الوعي العقلاني فيما بعد أن يلغي هذا النشاط الحرّ للمخيلة، أو يكون بديلاً عنها»⁽³⁾.

(3) لمزيد من التفصيل، انظر: «الوعي والفن»، عالم المعرفة، العدد 146، الكويت، 1990، ص 25.

يرى دوركايم في هذا السياق: «بأن شعور الجماعة البدائية يتفوق الكائنات العلوية المقدسة، جعل من الدين فطرة والحياة الدينية ابتكاراً اجتماعياً حقيقياً»⁽⁴⁾.

لا شك بأن المفكر المذكور ينطلق من مفهوم التفوق أي التراتب وهو يعكس موازين قوى، ذلك أن فكرته الأساسية تعتبر العلاقات بين الإنسان والطبيعة هي علاقات سيطرة وقوة وصراعات دائمة، وهي رؤية فرضتها ظروف التطور الرأسمالي الماركنتيلي والإمبريالي، بينما لحظ البدائي احتكام الكون إلى تراتب وتناسق بين الموجودات، ولكنه تراتب لا يؤول إلى موازين قوى متناحرة، بل ينهض على تفاوت الحقول والمستويات، ومن هنا رتب البدائي الكون ترتيباً متصالحاً محدداً وظائف الموجودات وفقاً لقدراتها ضمن تناغم شمولي فلسفي فهو لم يعتبر التفاوت مظهراً للقوة والسيطرة.

أما ظاهرة التدين فيردها الوعي البدائي إلى أمرين:

● الأول: تراتب متدرج للقوى الطبيعية يقع اللامرئي في أعلاه والإنساني في أسفله ضمن نظرة فلسفية شمولية دون خوف.

● الثاني: منع الاختلاف الاجتماعي ونشوء النصاب السلطوي المقسم للمجتمع، لذلك أعاد الدين الفطري الشرعية الاجتماعية إلى خارج المجتمع أي رد السلطة إلى اللامرئي.

تُفهم الأسطورة في هذا السياق كوعي يدرك ويتمثل معنى المغايرة، بينما الطوطمية تجسيم للامرئي لإدراجه في سلم المحسوسات والمرئيات، من هنا فهي انحراف عن معنى المغايرة أسس للوثنية كنقيض للوحدانية المطلقة.

2 - أرسطو والنفس

رأى أرسطو أن عملية التفكير هي تأمل هوامي غير مادي، وإن كان يشبه الإحساس. إذ يقول: «النفس لا تفكر دون هوام... والهوامات كالإحساسات ولكن من غير مادة»⁽⁵⁾. تتم عملية إسقاط الواقع على النفس في تمثّل الأشكال وليس الموجودات بحد ذاتها كمادة. الفكر عند أرسطو أشبه بالوهم ولكنه يتطابق مع الموجودات، أي أنه يعقل الموجودات ولا يخلقها، ولكن فكره يتضمن الخيال كملكة تصوّر للأشياء والقدرات العقلية التي تدرك الماهيات والكليات.

3 - العقل الإسلامي والإدراك

يبحث الوعي الإسلامي عن الله في حقائق الوجود، ويستخدم العقل دون أن يفصل بين الإيمان والمعرفة، ذلك أن غاية العلم الإسلامي هي أنسنة العلم الإلهي، والمعرفة ليست غاية بحد ذاتها ولذاتها، ولا لفرض السيطرة والتسلط بل خدمة الإنسانية بشموليتها.

يحث القرآن الكريم على التأمل والتفكير، وهما من مفاعيل العقل وليس الحواس، فتصبح معطيات الحواس مقدمات لنشاطية العقل الذي يستخرج منها المعاني والدلالات ويدمجها في تجربة الوعي الإنساني الشامل المتأمل والمتبصر. يتخلق الوعي الإسلامي في صيرورة لا يغيب

(4) حول هذه المسألة، راجع المقال المترجم لملي حرب، «أصل الدولة» لمارسيل غوشي، الفكر العربي، العدد 22، 1981، ص 36 و38.

(5) يتناول ك. كاستورياديس هذا الموضوع بالتفصيل في كتاب باللغة الفرنسية: Libre, No. 3, Éd. Payot, Paris, 1978, pp. 168-180.

عنها التمثّل بنموذج إلهي يرشد ويهدي ويحدّد الصراط المستقيم.

يقرب تحديد الإدراك عند الإمام الرازي إلى التحديد العلمي الحديث من حيث الربط بين عملية الإحساس والتعقل، فهو يقول: «إن العين ترى ويقوم العقل بتفسير التأثيرات الحسية، ويصدر الحكم، وإنما يمكننا أن ننظر لعمل العين عملاً كاملاً، إذا صحبته البصيرة، أي إذا جاء التعقل بعد عمل العين»⁽⁶⁾.

أما الفيلسوف المحاسبي، فيرى أن العقل ملكة فطرية غريزية، ولكنها تتناسق مع معطيات الأشياء الخارجية، بمعنى أنها تستقيم على وظيفة محددة، من خلال التزود بأسباب المعقولات، وهي لا تكتمل من الداخل، بل من ارتباطات وعلاقات مع المعطيات الخارجية. إذ يقول: «إن العقل غريزة أي أنه يسبق الإطلاع، وهو لا يأتي من المعرفة وإن زوّدته بالأسباب الدالة على المعقول... إلا أن الإنسان يستطيع أن يخالف هذه الغريزة، لأنها لا تكتمل داخله، بل إن تناسقها لا ينفصل عن تناسق خارجي يرتب الأشياء»⁽⁷⁾.

وتناول العلماء المسلمون موضوع النفس، فإشاروا إلى كونها جوهرًا لاماديًا، وإلى أن العقل يُدرك الماهيات والكماليات المجردة، أما الإدراكات الحسية فهي لا توفر دائماً الأرضية لتحقيق المفاهيم العقلية، «ذلك لأنه لا يوجد الإدراك الحسي بإزاء جميع المفاهيم العقلية»⁽⁸⁾.

وفي ما يخصّ العلاقة بين الصور الحسية والمفاهيم العقلية، فيرى العلماء المسلمون في ردّهم على الفرض القائل، بأن المفاهيم العقلية هي عبارة عن تغيير شكل الصور الحسية (أي تجسيم التعقل) أنه: «يستلزم أن لا تبقى الصورة التي تغيّر شكلها وتبدلت إلى مفهوم عقلي، على وضعها السابق... نلاحظ أنه حين وجود المفاهيم الكلية في الذهن تكون الصورة الحسية والخيالية باقية على وضعها السابق»⁽⁹⁾.

يعتبر الفيلسوف الشيرازي في سياق آخر: «أن النفس صورة مادية تتفاوت درجاتها قرباً وبعداً عن منشأاتها العقلية»⁽¹⁰⁾. إنها جوهر يتمظهر في حركة، وقدرات، وليست قوة مزاجية، وينفي هذا الفيلسوف الإسلامي الجسمانية عن النفس، وإبعاد كونها مقداراً أو أنها منضبطة في مقدار.

4 - الفلسفة الغربية المعاصرة

تتغذّى الحداثة من فكرة سيادة العقل كأداة معرفية يمكنها اكتشاف الحقائق الموضوعية ثم تسخيرها لمصلحة الإنسان عبر السيطرة على الطبيعة باستخدام التقنية العلمية. نمت الوضعية المادية كتيار فلسفي آله العقل، وأدلى تقنياته خالقاً صناعية جديدة فكرية استبدلت الإنسان ككائن متعدد الأبعاد بكائن اعتبرته نظاماً مركباً من الطاقة وآلة كاشفة للحقيقة الخارجية، لذلك ترفض الوضعية الظواهر اللامادية وتعتبر حقل الإدراك ممكناً فقط في تناول المعطيات المادية وتأكيداتها.

(6) راجع كتاب علي الشامي: الحضارة والنظام العالمي، دار الإنسانية، 1995، ص 211 - 212.

(7) أنظر مقالة نظير الجامل: «الأصل والتواصل في الإسلام»، المصدر رقم 4 نفسه، ص 253.

(8) و (9) راجع لمزيد من التفصيل محمد تقي المصباح: المنهج الجديد في تعليم الفلسفة، المجلد الأول، دار التعارف للطبوعات، بيروت، 1990، ص 212 حتى 216.

(10) أنظر كتاب الفيلسوف الشيرازي، جعفر آل ياسين: مكتبة الفكر الجامعي، منشورات عويدات، بيروت، 1978، ص 127 - 128.

وتتنازع نظرية المعرفة نزعتان الأولى وثوقية ترى أن الإنسان يمكنه التوصل إلى معارف يقينية مطلقة، والثانية نقدية نسبية ترى أن المعرفة محدودة بالمعطيات الحسية وإن كانت تركز على العقل.

تدمج الوضعية المادية كتيار فكري فلسفي بين العقلانية والأخلاق دمجاً يحيل العلاقات بين البشر والطبيعة وبين الكائنات إلى مجرد قوانين صارمة منطقية، فيرى برتراند راسل في هذا السياق: «بأن مشكلة الكليات بغير أساس وأن كل ميتافيزيقيا فارغة من المعنى، وأن الفلسفة ينبغي عليها أن تستخرج أحكامها من علوم الطبيعة وليس من الدين والأخلاق»⁽¹¹⁾.

إن أحكام الطبيعة تسري بين الموجودات، والإنسان ذات في هذه الطبيعية وهي التي تقيم صرح المعرفة من خلال اكتشاف قوانين علاقاتها بالموجودات وبالطبيعة نفسها، وهنا لا بد من إبراز ملاحظتين، الأولى أن العلم هو النظر إلى الموضوعات والحقائق وآليات اشتغالها وقوانينها، والثانية هي أن الخيارات الإنسانية ومحاولات تغيير الطبيعة أو العلاقات الاجتماعية تعود إلى الأخلاق وليس إلى العقل، فالإرادة الحرة تختار وفقاً لمنظومتها الفلسفية خياراً محدداً وتستخدم تقنية (العقل) لتحقيق هذا الخيار أو الهدف.

يبني العقل في سياق آخر كليات نظرية من المدركات الحسية بل إنه يطوي في قدراته أبعاداً أخرى كالخيال والذاكرة، ويركب موهومات ويدمج بين الظاهر والباطن، فلماذا يا ترى يدرك العقل الكليات إذا كانت بغير أساس ولو عقلي كما يذهب إليه راسل؟ هل هو حشو وظيفي أي تشويش دماغي؟ وما هو تالياً حكم الضرورة التطورية في القدرات الإدراكية للكليات إذا كانت بغير أساس؟

يتحدد المعنى أو المضمون أو الأساس في رؤية راسل في محسوسية الموجودات أو بروزها العيني، أي المادي الملموس، (فما يغيب عن العين ينسأه القلب).

يتضمن المعنى بعداً أساسياً له ما فوق تحديد مادي، إنه المضمون الذي نعتقد أنه يسم الأشياء وهو غير مرئي لأنه علائقي ذهني وخيالي.

ويذهب راسل إلى القول أيضاً: «إن العالم يتألف من معطيات حسية ترتبط في ما بينها بعلاقات منطقية خالصة»⁽¹²⁾. إن القول بوجود علاقات منطقية يعني القول بوجود عقل خاص يحكم سيروراتها، وهذا العقل إما أن يكون وعياً داخلياً يرقى تماسك وانتظام المعطيات الحسية وإما أن يكون عقلاً خارجياً يراقب ويضبط ضمن منهجية استقرائية ويقرر منطقية هذه العلاقات. ويذهب راسل إلى الأخذ بالرأي الأول معتبراً العقل داخلياً، إذ يرى بأن العقل هو المعطيات الحسية نفسها. ولكن ما هي الضرورة المادية لعقلنة العلاقات؟ يدحض التاريخ هذه النظرة، إذ إن الإنسان أدرك ونسج علاقات فكرية محددة مع الموجودات تختلف عن النظرة الحديثة. ومع ذلك ظلت العلاقة انسجامية مع الكون والموجودات، كما أن العقل الإنساني قد ينفي أو يرفض المعطيات الحسية وتنتجها أحياناً ويسلك سلوكاً مغايراً لها. إن عقل المعطيات الحسية يرتبط في الحقيقة بعقل المراقب وسلوكه، وإن الطريقة التي نعقل بها الموجودات يستتبعها سلوك معين يناسب هذه الطريقة.

(11) راجع: عالم المعرفة، الكويت، العدد 165، «الفلسفة الأوروبية المعاصرة»، ص 86 - 87 و88.

(12) المصدر السابق نفسه، ص 87.

تذهب الماركسية في سياق آخر مذهباً يشبه الاختزال والتبسيط: «إن الوعي هو نسخة انعكاس، صورة فوتوغرافية للمادة... وإن المادة هي التي تحكم الوعي وتوجهه»⁽¹³⁾. يندرج هذا الفكر الاختزالي في إطار عقلانية مادية ميكانيكية وتوجهه إيديولوجية «علموية» تحجب الاستقراء المعرفي الحقيقي للموجودات والكائنات وعلاقاتها الواعية فتأسرها في لاواعي تاريخي لا يملك الإنسان إلا الاستسلام لمنطقه، ذلك أن الوعي على الرغم من التعقيد الذي يشوبه هو ناشئ من علاقات إدراكية بين الذات والموضوع، والإشكالية الكبرى التي تنكشف عن هذا الاختزال الفكري تستند إلى ما يلي:

(1) إن الحواس لا يمكن أن تكون آلة تصوير، لأنها محدودة في قدراتها الفيزيائية ولا يمكن لها أن تنقل كل المعلومات الخارجية، وسنرى ذلك لاحقاً.

(2) تتحكم الإرادة الواعية والعمليات الذهنية في النشاط العصبي الدماغي أي في المادة وتحدد المسارات العصبية ونتائجها.

(3) إن الوعي ليس مجرد انعكاس للواقع الموضوعي على الدماغ، بل إنه يستدعي ضبطاً للمحسوسات والمدركات في توليف تلعب فيه الذات دور المقتن والمراقب.

(4) إن الواقع الذي ندركه يعكس تصور الذات عنه، والإنسان ليس آلة تصوير، لأن النفس الواعية تعي الفروقات بين الصور الذهنية ذات المنشأ الداخلي غالباً، وتلك التي تتلقاها الحواس من الخارج. وقد تشيد النفس صوراً حسية بإبداع من دون الرجوع المباشر إلى معطيات حسية خارجية إلى درجة تصبح معها هذه الصور الحسية موجهة للوعي.

(5) ثم إن الوعي يستطيع أن يعدّل من سيرورات الإدراك الحسي على الرغم من ورود الإحساسات إلى الدماغ أي أنه يوجّه المادة.

يرتبط الوعي إذاً بحد ذاته كملكة عقلية بالحالة الوجدانية والانفعالية للنفس المدركة وبالمستوى الأخلاقي والديني الذي يعيّن اتجاه وحركة هذا الوعي ويحددهما وليس العكس⁽¹⁴⁾.

أما المادية الجدلية، فعل الرغم من أنها ظاهرة تسم بعض جوانب العلاقات المادية، فإنها لا تحكم تطور الخلية وآلياتها مثلاً، ذلك أن الخلية تعمل وفقاً لغائية محددة تنسجم مع إعادة إنتاج عناصرها باستمرار، وأن ثمة تفاعلاً إرجاعياً يوازن بين عناصرها وآلياتها ومستوى الإفرازات ويبقيها في معدلها الطبيعي.

أما الفرويدية فتستند إلى سيادة اللاوعي في تفسير الظواهر النفسية ومضمون الكينونة، إذ يعتبر فرويد: «بأن اللاوعي يتحكم في الوعي، وبأن كل فرد هو عدوّ الحضارة، ذلك أن الحضارة تقوم أصلاً على كبت الغرائز، ولذا فهي «عصابية» الطابع، مما يؤدي إلى القول بتدمير الحضارة»⁽¹⁵⁾.

ينتقي فرويد من بين الرغبات والغرائز، الجنس كمحدد للوعي ومفسّر للظواهر النفسية بعامة، مع أنه يعطي لمفهوم اللبيدو بعداً أشمل وأعم لكل ما هو فطري، فإنه مع ذلك يشدّد على المعنى الجنسي في تحديد اللاوعي. فلماذا يكون الجنس وحده محدداً للوعي؟ وما هو

(13) المصدر السابق نفسه، ص 112 - 113.

(14) أنظر المصدر رقم 4، ص 38 و 39.

(15) أنظر: مجلة عالم الفكر، مقال مراد وهبه، «الاغتراب والوعي الكوني»، 1979، الكويت، ص 107 - 108.

الجزء منه الذي يحدده أهو التناسل أم اللذة؟ وما معنى الرغبة أصلاً إذا كانت تتحقق باستمرار؟ نورد بعض الملاحظات في هذا السياق وهي:

(1) قامت الحضارة على الثقافة أي على تغليب الوعي على اللاوعي، وإذا كان الإنسان يتطور ويتقدم من خلال سيطرته على الطبيعة وقواها، فكيف لا يجب أن يطال الضبط غرائزه ورغباته؟

(2) استدعى نهوض الاجتماع البشري انبثاق علاقات اتصال بين الافراد، كاللغة والخطابة والاسطورة والمرموزات الاجتماعية والأخلاقية. وأن علاقات التبادل والاتصال تعني قيام حدود بين الافراد ومسلكتهم، أي قيام مفهوم الحرية والتعاون الذي يعين بالضرورة ضبط الغرائز حتى لا تكون هذه الأخيرة عشوائية بشكل يعيق حرية الآخر. والحرية هي تعيين علاقة بين طرفين وحدودها المنضبطة في إطار أخلاقي.

(3) إن الكبت شرط للحرية الإنسانية أي أنه القانون الذي يوازن بين رغبات الافراد وتداخلها وتشابكها أو تناقضها.

فما هي وظيفة الكبت من الناحية الفيزيولوجية؟

الكبت هو إرجاء تحقيق الرغبة أو تأخيرها أو تعديله، فهو تخزين الطاقة وتكثيفها حتى يصار إلى تفريغها لاحقاً متى سمحت الظروف والشروط الثقافية بذلك. واللذة هي تفريغ شحنة الاحاسيس المضغوطة والطاقات المكبوتة بالمعنى الشمولي الذي يتعدى الإطار الجنسي، ولا معنى للذة أصلاً ما لم يسبقها تخزين وضغط للطاقة. يصنع الجسم مشتقات الأوبيوم في داخله، لينظم للبيدو، وأن أي نقص فيها يؤدي في منطقة ما تحت المهاد إلى إحساس بالكبت ومن هنا زيادة في الليبدو تالياً.

ويخزن الحيوان مثلاً الطاقة خلال السنة، حتى يحين وقت استعداد الأنثى للجنس فيتم تفريغ هذه الطاقة. أما الإنسان فيستطيع تفريغها (الطاقة) وقت يشاء، لذلك كان لا بد من عنصر ضابط وكابح لها يشحنها ليعيد تفريغها وإشباعها، وهذا العنصر هو الثقافة أو الوعي أو الكبت⁽¹⁶⁾.

يخضع الجنس في سياق آخر لاعتبارات علائقية مباشرة، فهو يفترض قبولاً من الشريك (الحرية) ويتضمن حميمية خاصة، تقننها الثقافة، ذلك أن المشاعية الجنسية في حال ثبوت حدوثها في التاريخ، فإنها لم تكن إلا مرحلة ظهرت استحالة استمرارها مع ضرورات التطور الإنساني أعني تحكم الوعي في اللاوعي.

(16) حول هذه المسألة من المفيد جداً مراجعة كتاب مالبومنسكي بالفرنسية:

La sexualité et sa répression, No. 95, Payot, Paris, 1976, p.164-165-167.

إذ يقول المؤلف: «المحرّم هو رد فعل تجاه الغريزة، وهو ما يميّز أساساً التنظيم الإنساني عن الغريزة الحيوانية... وأن غاية الفعل الجنسي لا تكتمل مع الاكتظاظ السكاني... وكما أن الشحنة الجنسية يمكن إثارتها في أية لحظة وفي مجموعة من الظروف المختلفة... ثم إن أنماط الإثارات الجنسية وتوجيه التصرفات العاطفية ودوافع الاختيار المحدد، هي أمور تفرضها القيود الثقافية»، ثم يخلص إلى القول: «بأن الإنسان يملك ميولاً جنسية، ولكن هذه الميول تتخذ أشكالها واتجاهاتها النهائية من مجموعة القواعد الثقافية التي تختلف من مجتمع إلى آخر».

III - الجهاز العصبي، الدماغ، والعقل

ليس الدماغ البشري حاسوباً آلياً، ولا يمكن مقارنته بآلية اصطناعية، فهو لا يُعتبر مجرد منفذ لبرمجة الحواس، إنه منظومة معقدة جداً تستطيع إجراء استراتيجيات إدراكية - فكرية بشكل مستقل عن الوسط الخارجي أحياناً.

يتمثل الدماغ العالم الخارجي في لحائه، ويبني صوراً ذهنية ضمن حسابات دقيقة ومعقدة وخاصة. يوجّه الجهاز العصبي وظائف الجسم فيربط الكائن الحي بوسطه الخارجي، كما أنه ينسّق بين الوظائف الداخلية، ويثبت التوازنات بين الأعضاء بفعالية. فيؤمن استمرارية الحياة من خلال المحافظة على الثوابت العضوية وتعيين التفاعلات العصبية والهرمونية وضبطها.

ينقسم الجهاز العصبي إلى قسمين أساسيين: الأول الجهاز العصبي المركزي ويتكوّن من الدماغ والنخاع الشوكي، والثاني هو الجهاز العصبي الطرفي ويتكوّن من الأعصاب والألياف الحسية والحركية والعقد والمنظومتين الودية ونظير الودية، وهما ذاتيتان في كليهما. بالإضافة إلى ذلك يتألف الدماغ من مراكز متعددة تؤمّن الوظائف الحيوية، ونظام الذاكرة، والحياة اليومية، والسلوك، ولكننا لم نتمكن من تحديد مركز واضح للإرادة والإبداع. ويتميّز الدماغ بأن أجزائه وخلاياه متصلة ببعضها البعض ومتداخلة متشابكة بشكل مذهل يفوق التصور.

1 - حول البنية العصبية

تشكّل الخلية العصبية (اليوزون) الوحدة الأساسية في وظيفة الجهاز العصبي، ويُقدر عددها بحوالى 30 مليار خلية عصبية أو أكثر في الدماغ الإنساني⁽¹⁷⁾ ترتبط كلها ببعضها البعض عبر شبكات معقدة التركيب. كما أن الشبكات العصبية تضم مراكز اتصال أو مشابك (Synapses) يصل عددها إلى نحو مئة ألف مليار مشبك، مع إمكانيات هائلة للترابطات والاتصالات تفوق الخيال. يضاف إلى ذلك مراكز عصبية متخصصة، ونقاط اتصال بين هذه المراكز، تُصدر أليافاً عصبية وتتلقي أخرى، وتنسّق الأحاسيس مع التصرفات والحركات الإرادة واللاإرادية. ثم إن هنالك تنوعاً تشريحيّاً في أشكال الخلايا التي تنتشر وتتشابك وترتبط ببعضها الأمر الذي يعقد مسألة تموضعاتها الهندسية وتداخلها في المراكز العصبية المتخصصة، وهي مع ذلك متشابكة في بنياتها وأشكالها في كل مناطق الدماغ البشري.

2 - حول الوظيفة العصبية

تنهض الوظيفة الأساسية للخلايا والجهاز العصبي على انتقال السيادة العصبية في الخلايا، وهي نبضات كهربائية وكيميائية، حتى تصل إلى المشابك أو مراكز الاتصال حيث تعبر من خلية إلى أخرى بواسطة الناقلات العصبية (Neurotrans-metteurs). الوظائف الأساسية للخلية العصبية هي إذًا: إنتشار النشاطات الكهربائية، والنقل الكيميائي عبر المشابك، ودمج هذه النشاطات في أغشية الخلايا التي قد تكون محرّضة أو مثبّطة (inhibéé). والملاحظ أن هذه الوظائف هي نفسها مهما كانت تخصصية الخلايا العصبية، وأن طريقة تشابك وانتظام هذه

(17) لمزيد من التفصيل حول هذه النقطة، وموضوع تركيب الجهاز العصبي برمته، راجع كتاباً باللغة الفرنسية، العدد 2:

Unité de l'homme: le cerveau humain, Éd. Seuil, 1974, Paris, p. 59.

الخلايا هي متشابهة في كل مناطق الدماغ مهما كان تخصصها أيضاً. ومن المفيد توضيح هذه الوظائف كي يستنى للقارئ إدراك سياقها الفيزيولوجي:

● تنطلق الإثارة من المحرّض الخارجي أو الداخلي أحياناً، وتتحول إلى نشاط عصبي على شكل نبضات كهربائية في محور الخلية، الذي يشهد تبادلاً في الأيونات (البوتاسيوم والصوديوم) مع محيطه في الدماغ وتصل هذه النبضات إلى نهايات الخلية فتتحول إلى نشاط كيميائي في المشابك.

● تنتقل الشحنة من خلية إلى أخرى في المشبك بواسطة جزيئات كيميائية هي الناقلات العصبية التي تسبح حول نقاط الاتصال⁽¹⁸⁾. يستخدم الدماغ إذاً ناقلات عصبية للسيالة من أهمها: حمض جاما أمينوبيوتيريك (A. J-aminobutyric) وهو حمض أميني لا يدخل في تركيب بروتينات الجسم بل يُصنع فيه لاستخدامه في المَخِّ والنخاع الشوكي. وهناك أيضاً حمض جلوتاميك وله الدور نفسه وغيرهما كثير.

● إن الإثارة التي تتعرض لها الخلية العصبية تؤدي إلى حصول جهد كهربائي ناشط (Petentiel d'action) أي إلى تغييرات إلكترونية في الغشاء تسير حتى نهاية الخلية، وترتبط هذه الشحنة الكهربائية بحدّة المثير ومدة إثارته.

كما أن المستقبلات الحسّية (récepteurs) متخصصة أي أنها تستجيب لإثارة محدّدة فيزيائياً وملائمة لوظيفتها، ولكن وعلى الرغم من هذا التخصص فإن السائلات العصبية متماثلة في كل الجهاز العصبي، فهي جهد كهربائي ينتشر وينتقل بحسب تواتر ومدة الإثارة المرموزة في السيالة العصبية نفسها.

يرى معظم العلماء أن قدرة الإنسان على الإدراك الحسّي والتعلم والتذكر والتفكير، تعتمد كلها اعتماداً كلياً، على عدد مراكز الاتصال في الدماغ وعلى بنياتها وكيفية ارتباطاتها. إذ تحقق هذه الترابطات والاتصالات النشطة بين الخلايا والمشابك تغييرات في السلوك، وتخزين المعلومات (الذاكرة) التي يبدو أن مركزها الخاص يقع في منطقة الحصين (Hippocampe) ولكننا حتى الآن لا نعرف كيفية ذلك!!

ويؤكد جان بيار شانجو بأن التذكر والتعلم واكتساب المهارات هي خصائص تميّز أنشطة الدماغ والجهاز العصبي وخلاياه فيقول:

« 1 - إن الكائنات التي تكون برمجة اتصالاتها العصبية ثابتة غير متحركة وقاسية، هي غير قادرة على التعلم، إذ تترافق القابلية على التعلم مع متحركة المشابك أي قابليتها للتحويل.

2 - وتنتج قابلية المشابك على التحول من أمرين: الأول متحركة النهايات العصبية جزئياً، والثاني إمكانية إجراء عدد كبير من الاتصالات العصبية بشكل ظرفي أي انتقالي.

3 - تنتج صفات ومميزات الارتباطات العصبية الجديدة من ورود المعلومات، وذلك من خلال اختيار بعض المسارات الخاصة بين عدد كبير من التركيبات المشبكية المتحركة (القابلة للتحويل والتغير).

وهكذا تثبت الوظيفة العصبية تركيبات الارتباطات التي تسري فيها السيالة الملائمة، ويزداد

(18) انظر: «لغة الكيمياء عند الكائنات الحية»، عالم المعرفة، العدد 93، الكويت، 1985، ص 197.

عدد التركيبات في مرحلة التعلم، وتنتج عن انتشار متحركة النهايات العصبية،⁽¹⁹⁾.

لم يقل لنا الكاتب المذكور كيف تتم ترجمة النبضات الكهربائية المرموزة إلى فعل وسلوك متغير بحسب الظروف؟ ثم كيف تولد النبضات صوراً ذهنية وتخزيناً للمعلومات وإحساسات متنوعة؟

لا شك في أن الجهاز العصبي شديد التعقيد، خصوصاً أننا لا نعرف حتى الآن إلا 20% من طاقاته وقدراته. ولكن لا بدّ من طرح التساؤلات كي نتمكن من كشف حقائق الأمور المعروفة، فالحديث عن تخصصية وراثية مبرمجة للخلايا العصبية والمراكز الدماغية، هو تحليل تشريحي لبنية الجهاز العصبي لا يكشف عن طبيعة الوظيفة عبر ذاتها، فالمعلومة تنتقل عبر المرموزات الكهربائية وهي نفسها في كل مناطق الدماغ، ثم تقوم المراكز الدماغية بفك الرموز وحلها دون أن نعرف آليتها الفعلية.

فكيف تعرف المراكز الدماغية تفاصيل المعلومة؟ صحيح أن تحسس الشبكية ينقل مثلاً سيالة عصبية إلى الدماغ الذي تثار خلاياه ومراكزه بفعل تأثير التحريض القادم من الشبكية. ولكن كيف يعرف الدماغ أوضاع وأشكال وحركات المعلومة المنقولة؟ إن آلية الدماغ الفعلية لا تزال غامضة حتى الآن.

كما أن القدرة الوظيفية للخلايا العصبية على التقلبات والتحويلات، وتشغيل مراكز الاتصال تعكس طريقة انتشارها هندسة تموضعاتها واتجاهات شجيراتها النهائية. وهي أمور مبرمجة وراثياً أو ذات استعداد وراثي بمعنى أنها قابلة لأن تتحول وتتقلب وتحتل تركيبات متنوعة وكثيرة. كل ذلك لا يدلنا على الرابط الوظيفي بين النشاط العصبي الكهربائي والمحسوسات الخارجية بمعاييرها الفيزيائية. ويبدو أن مستوى عالياً من التخصص يحكم انجذاب الأسلاك بين الخلايا الإحساسية والمصدرة للسلوك، إلا أن هذا التخصص لا يخبرنا عن كيفية التعرف على الإشارة الداخلية أو الخارجية! طالما أن النشاط الكهربائي هو نفسه في كل الحالات. ولو سلّمنا جدلاً بأن شمة خلايا عصبية متخصصة جداً تلتقط معلومة خاصة (شكل، لون، بُعد أو أي معيار فيزيائي محدد) وتنقل سيالة عصبية إلى خلية دماغية خاصة تفهم هذه المعلومة. فكيف تعرف الخلية اللاقطة للمعلومة أن تحدد الخلية الدماغية المسؤولة عن فهم هذه المعلومة؟ كيف تختارها من بين مليارات الخلايا؟ ولو كانت الخلايا تتبادل المعلومات على شكل مرموزات فكيف تعرف المطابقة بين الإشارة والشفرة وكيف تفككها؟ خصوصاً أن نضوج المراكز العصبية يسبق نضوج المستقبلات الحسية، مما يجعل مسألة التواء والمطابقة المعلوماتية صعبة الفهم! وإذا كانت التجارب تثبت ضرورة النشاط العصبي لمنع انحلال الخلايا وتمتين وظائفها وبنيتها⁽²⁰⁾، فإن العلماء يؤكدون على عدم وجود علاقة بين المقدار الفيزيائي للمثير الخارجي وطبيعة النشاط العصبي نفسه.

إلا أن شانجو يعود إلى الاستنتاج، بأن كل النشاطات العصبية لا سبيل لها إلا من خلال الخلايا العصبية وارتباطاتها وشبكاتها المعقدة وتأثير الهرمونات، ويؤكد على أن الذاكرة تتضمن تخزين المعلومات وإعادة قراءتها مجدداً⁽²¹⁾.

لا شك في أن النشاطات العصبية ترتكز أساساً على ارتباطات الخلايا وشبكاتها المعقدة، التي

(19) راجع المصدر رقم 17، ص 76.

(20) راجع المصدر رقم 17 نفسه، ص 73.

(21) راجع المصدر رقم 17 نفسه، ص 89 - 90.

تتجلى في البنية المتحركة للمشابك والمراكز والخلايا، إلا أن المشكلة هي تفسير التعقل والإرادة الواعية وتأثيرها على هذه النشاطات. ولا تقول لنا هذه البيانات والترسيمات كيف تُخزن المعلومات! هل هو تخزين مادي صرف أم ديناميكي متحرك يعود العقل لصياغة تركيباته؟

ونعود إلى السؤال نفسه: كيف تستطيع النبضات الكهربائية ثم الكيمائية نقل المعلومة وتحويلها إلى صور ذهنية وتخزينها تالياً؟

وإذا كانت الإثارة الحسية الخارجية تثير في الخلايا نشاطات معينة، فكيف تتحول هذه النشاطات إلى صور وأبعاد وأشكال وهي غير المادة بل الإحساس بها كما يقول أرسطو؟ إن الحواس تلتقط دالة فيزيائية حسية تثير نشاطاً في خلايا متخصصة، ولكن لا يوجد تطابق فعلي واضح بين الدالات الخارجية وطبيعة الإثارة الكهربائية. فاعضاء الحواس تعمل كمعدلات كهربائية تعكس المحسوسات وتنقلها إلى الدماغ على شكل نبضات مرموزة. وإذا كانت المستقبلات الحسية ذات برمجة وراثية تخصصية إلا أنها لا تجيد إلا ترميزاً كهربائياً للمحسوسات ثابتاً. فإذا كيف يُعاد رسم المادة الخارجية وتصويرها في الدماغ؟ احتمالان يردان هنا:

الأول: أن تكون الخلايا البصرية مثلاً تنقل المعلومة الخارجية بعد تفكيكها وتبنيها على شاشة لترتسم أبعادها وأشكالها كما هو حاصل مع الآلة. فإين هي الشاشة ونحن لا نجد صوراً مادية في الدماغ فعلاً! بل وأكثر من ذلك إن الشاشة والمتلقي هما هنا شيء واحد. والعلماء يؤكدون بأن الدماغ هو الذي يرى، فكيف يفعل ذلك طالما أن الإرادة الحرة والنفس تستطيعان تعطيل الرؤية أو التشويش عليها؟

الثاني: وهو الأقرب إلى الحقيقة، أن تكون الخلايا العصبية هي التي تنقل المعلومة الفيزيائية على شكل ترميز كهربائي وكيميائي، دون تحديد للمطابقة بينهما، ولكن تبادلاً مهماً للمعلومات والمرموزات يحصل بين الخلايا العصبية ومناطق في الدماغ، يراقبه ويضبطه عقل خاص مبرمج نجهل آليته الفعلية.

إننا نتلقى مثلاً محسوسات ضوئية تنتقل عبر مرموزات كهربائية لتصل إلى الدماغ حيث يتم تحليلها وتفسيرها وإعطاؤها المعنى المطلوب من خلال مراقبة عقلية ونفسية، أي أننا نستخدم شاشة داخلية وهمية لكي نعي هذه المحسوسات ونتخذ حيالها سلوكاً ملائماً.

3 - آلية العقل

تتجاوز آلية التعقل والتحليل والتفسير الحقل الفيزيائي - المادي، وإن كانت ترتكز على انتشار السيالة العصبية، لأن حل المرموزات وفك لغزها يخضعان ويحتكان إلى ضابط يعقل المحسوسات في سياق منطقي خاص، ويصدر الأوامر لإحداث النشاطات الملائمة وتغيير النشاط العصبي بحد ذاته.

يشير السيد جون أكنس إلى هذه المسألة بقوله: «إن التجارب التي تتم عن الوعي، تختلف في نوعها كل الاختلاف عما يحدث في آلية الأعصاب، ومع ذلك فإن ما يحدث في آلية الأعصاب شرط للتجربة، وإن كان هذا الشرط غير كافٍ»⁽²²⁾. فالصورة التي تُسلط على الشبكية مثلاً،

(22) راجع المصدر رقم 1، ص 26.

تحتاج إلى مستقبلات حسية متخصصة، ولكن لا بد لها من عقل واع يعيد تركيبها من أنماط المرموزات الكهربائية، إذ تتشكل عملية الإدراك الحسي من ثلاث مراحل: المنبّه الأصلي لعضو الحس، والنبضات المرسلة إلى الدماغ، ونمط النشاط المثار في الدماغ (وعى المحسوسات).

إن الإدراك الحسي حقيقة، ولكنه ليس المادة، وليس في مقدور المادة أن تفسره. ولا شك في أنّ الحواس أساسية لمعارفنا، ولكننا نجد إلى جانبها وتحت تصرفنا مجموعة من ملكات الإحساس الداخلي التي تدرك جميع الصفات وتميّز في ما بينها، وتساعدنا على تذكّر الماضي مع غيابه الحسي. فالخيال مثلاً ملكة حسية داخلية نستطيع بواسطتها أن نتصور الأشياء التي تدركها الحواس والتي لا تدركها، فالخيال بخلاف الذاكرة يستخدم المعلومات بحرية وبطريقة إبداعية، والعواطف ليست مدركات حسية بل تفاعلات وانفعالات تجاه المحسوسات تتركز عليها ولكنها تنضبط في ميول النفس ورغباتها، أما العقل فملكة تدرك الماهيات والكماليات والقوانين ولكنها تختلف عن الخيال من حيث قدرتها الإدراكية. ينفذ العقل إلى قلب المدركات مرتكزاً على الأثر الحسي ومتجاوزاً له في صياغة المعنى والمضمون.

يؤكد ينغيلد جراح الأعصاب المعروف في سياق آخر على: «أنه ليس في قشرة الدماغ أي مكان يستطيع التحريض الكهربائي فيه، أن يجعل الفرد يعتقد أو يقرر شيئاً»⁽²³⁾. يستطيع التحريض الكهربائي أن يجعل الجسم يتحرك، ولكنه لا يمكن له أن يجعل المريض راغباً في تحريكه، إذ لا يمكنه إرغام الإرادة، فواضح إذاً أن العقل البشري والإرادة ليس لهما أعضاء جسدية. هذا يعني أن الجهاز العصبي منظومة ذات بنية خاصة، تتأثر بالمعطيات الحسية الخارجية، ولكنها تتأثر أيضاً بإرادة السلوك الواعي أي بالذات، ومن الرغبة في إجراء سلوك محدد.

ويذهب جون أكلس إلى القول حول هذه النقطة: «ليس في وسعي أن أفسّر تفسيراً علمياً كيف يستطيع التفكير أن يؤدي إلى الفعل... وحيث يؤدي التفكير إلى الفعل، أجدني مضطراً كعالم متخصص في الأعصاب إلى افتراض أن تفكيري يُغيّر بطريقة تستعصي على فهمي تماماً، أنماط النشاط العصبي التي تؤثر في دماغي»⁽²⁴⁾. ويستنتج بأن توقع العثور على العقل في أحد أجزاء الدماغ أو كله، هو أشبه بتوقع كون المبرمج جزءاً من الحاسوب الآلي.

إلا أن المشكلة التي لا تزال تستعصي على التوضيح هي العلاقة المادية بين العصبي والنفسي أي بين الروحي والمادي، ونظراً لصعوبة التنبؤ منها أو تأكيدها فيزيولوجياً وتشريحياً، لذلك افترض شانجو: «بأن تركيبات اليزونات الهائلة، ومجموعاتها المتداخلة، وتذبذباتها المتواصلة، تُحدث نشاطات تلقائية وتركيبية تؤدي إلى ولادة الافتراضات والمفاهيم الجديدة، أي الخيال وتصورية سلوك جديد.

وإن كان لا يكفي التنوع لفهم كينونة منظومة منظّمة لذاتها، فإننا يمكن أن نُجري انتقاءً كالمقارنة بين الصور الذهنية أو بين صداها المتبادل، أو تنافر أصواتها المتبادلة. وهذه العمليات يشرف عليها نظام مراقبة مكوّن من خلايا عصبية مختلفة»⁽²⁵⁾. تستند هذه الرؤية إلى

(23) المصدر السابق نفسه، ص 39.

(24) المصدر السابق نفسه، ص 39.

(25) راجع كتاب جان بيار شانجو بالفرنسية:

استقراء أو استنتاج عقلي، لا يمكن الركون إليهما لأنهما يحتملان الصدق أو الخطأ ولأن هذه الرؤية تبني معناها على افتراض أن عمل العقل والوعي ناتج عن مجموعة النشاطات العصبية بأكملها وعلى اعتبار المنظومة العصبية منظمه لذاتها، الأمر الذي لم يقنع الكثير من العلماء، لذلك ينهي بنفيلد في هذا الصدد بحثه حاسماً، وهو الذي بدأ أبحاثه بهدف إثبات مادية العقل وأن الدماغ يفسر العقل قائلاً: «يبدو من المؤكد أن تفسير العقل على أساس النشاط العصبي داخل الدماغ سيظل أمراً مستحيلاً كل الاستحالة... إن العقل ربما هو جوهر متميز ومختلف عن الجسم... ويا له من أمر مثير إذا، أن نكتشف أن العالم يستطيع بدوره أن يؤمن عن حق بوجود الروح»⁽²⁶⁾.

ومع ذلك فإن البعض الآخر يرفض هذه النظرة معتبراً: «أن وعينا هو مجرد لاوعي، وأن كينونتنا العصبية وآلية عملها وتنظيمها الذاتي، كلها آلات لاواعية، أو على الأقل تظن أنها واعية وعاقلة»⁽²⁷⁾.

نخلص إذاً إلى ما يلي:

- أ - أن العقل لا يتحدد موضعه في الدماغ وهو غير مادي.
- ب - أن العقل يركز على الأثر الحسي والجهاز العصبي ويؤثر فيهما في آن معاً.
- ج - أن العقل يغيّر نشاطات الجهاز العصبي باستقلالية تامة ومن دون الأثر الحسي المباشر أحياناً.
- د - فهل العقل مجرد محصلة لوظائف الجهاز العصبي نفسه؟
- هـ - وبما أن العقل غير مادي فكيف يكون من مفاعيل المادة؟
- و - هل النفس البشرية العاقلة تستخدم عقلها ودماغها وخيالها في حركة إبداعية تربط المحسوس باللامحسوس فتطوي الوجود كله وتدركه وتغيّر فيه؟

IV - الإدراك والمعرفة المرتبطة بالذات

لا بدّ قبل الحديث عن الوعي بما هو مميّزة عقلية، من أن نتناول الإدراك بحد ذاته كسياق معرفي ومدى علاقته بالذات المدركة.

(26) انظر: عالم المعرفة، المصدر رقم 1، ص 34.
 (27) راجع المصدر رقم 17، ص 201؛ إذ يتناول هنري آتلان موضوع الإرادة الواعية فيقول: «إنه بتعبير أخرى، بعد أن لاحظنا الصفة الوهمية للإرادة الواعية، إذ نتخيل أنها تحدّد الأشياء؛ إننا نعلم أن الهو (ça) هو الذي يشكل كينونة الإنسان». إنه كلام فرويدي لا ليس فيه، يقرر بأن اللاوعي هو الكينونة، رافضاً الإرادة الواعية الحرة، وهو موقف أخلاقي إيديولوجي لا شك في ذلك، ومن هنا عبثية محاولة البعض إعادة الذات إلى ذاتها بنبذها الفكر الديني لنفي الاستلاب (انظر: مقالة جميل قاسم: السفير البيروتية، العدد 28، 1996/7/5)؛ فالذات مستلبة بحسب آتلان تكوينياً.

ولكن الحقيقة العلمية هي أن الذات المدركة الواعية لا تدرك دون هوام أي دون انطباع بفعل الأثر الحسي وهو انطباع يطال الخيال والصور الذهنية والعقل نفسه؛ فالتقديس بوصفه انطباعاً ينطلق من المحسوسات فطرة بشرية (سواء كان ذلك تقديس الخالق أو الأصنام الجديدة كالسلعة والآلة والاستهلاك والإنتاج والإلكترونيات) إلا أن تقديس الله فطرة تتصالح مع التراتب الكوني دون تشيؤ، لأن السالب هنا من طبيعة مغايرة.

الواقع الخارجي وجوداً بعينه، ودليلنا أننا ندرك أبعاده وأشكاله بواسطة الحواس والوعي والعقل محاولين كشف ماهيته وكيته وجزئياته.

ولكن هل أن موضوعية الواقع حقيقة خارج حقل الوعي الذي يحددها؟ ألا يشارك الفكر في «صنع» الواقع من خلال إدراكه ومراقبته؟ وهل تساهم الحواس في خلق وعي محدود لا يشمل كل أبعاد الوجود؟ وما معنى عدم التطابق بين الفكر والواقع أحياناً وكيف تعالجه الذات البشرية؟

تعكس هذه الأسئلة التعقيد الذي يسم الواقع الموضوعي ويميز عملية الإدراك الحسي الإنساني.

تعتبر الحواس أدوات الإدراك، تتلقى المعلومات من المحيط وتنقلها إلى المراكز العصبية عبر النبضات الكهرو - كيميائية المرموزة، ثم يتم لاحقاً تفكيكها وتحليلها وإصدار الأوامر بالسلوك الملائم لها.

إذاً الإدراك يعني في ما يعنيه وجود ذات مدركة تحدّد أبعاد الواقع الفعلي وصوره. لا تقع الذات خارج المدركات لأنها هي التي تحدّد أجهزة الإدراك وهي التي تعطي للوجود معنى تستبطنه وتحلّله وتدمج الدلالات في المعاني المتحصّلة منها، فتتدخل الأنا أي الذات في تقرير الحقائق مستخدمة المعطيات الحسية وينتج عن هذا ما يلي:

1 - تخضع الحواس لمقايير فيزيائية مادية وعتبات وحدود لقدرتها على التقاط المعلومات، وهي تقتصر في عملها إذاً على مروحة معينة من القدرات، وعندما يتخطى الواقع هذه المروحة، لا يمكن للحواس أن تشير إلى أو تدلّ عندئذٍ على وجود شيء ما في المحيط الخارجي أو على الأقل يشوبه تشويه أو تشويش؛ إن شرط تلقي الحواس للمعطيات الحسية هو أن تقع هذه الأخيرة ضمن مروحة القدرات الحسية، حتى ولو استخدم المراقب آلة قياس علمية تلتقط ما تعجز عنه الحواس، فإن المسألة تظل في حدود تدخل المراقب وتوسيعه للمروحة الكاشفة. إن ما نُجرّبه الحواس بالضبط هو إسقاط الواقع (أبعاده وصوره) على الجهاز العصبي، وهو إذاً إسقاط لا يخلو من التشويش، لأن الحواس تعمل كمصافٍ، تختار ما ينبغي أن يعبر إلى الدماغ وما لا يعبر⁽²⁸⁾. هذه المسألة تجعل الإدراك الحسي انتقائياً ومرتهناً للأدوات الحسية وظروف المراقب النفسية.

إننا لا نستطيع معرفة الواقع الفعلي على حقيقته، لأن أثره الحسي يأتي من عضو الحس نفسه، ومهما تكن عملية المعرفة علمية فإنها تظل اصطلاحية.

لذلك أثار ببيكون الشكوك حول الحواس بصفة عامة: «عندما ندرك الحواس شيئاً ما، فإدراكها لا يمكن التعويل عليه كثيراً، لأن شهادة الحاسة، وما يرد إليها من معلومات ترجع على الدوام إلى الإنسان لا إلى الكون»⁽²⁹⁾.

ينتج عن ذلك كله، أن قصور الحواس عن إدراك الواقع الموضوعي يؤدي إلى عدم تطابق المعلومات الواردة من المحيط مع حقيقة هذا الواقع. فلماذا إذاً لا تعمّ الفوضى ويسود التشويش؟

(28) أنظر المصدر 17، ص 156 - 157.

(29) أنظر المصدر 22، ص 98.

الجواب هو أن علاقة الذات بالموضوع هي علاقة متحركة تلحظ التشويش المحتمل الناتج عن قصور الحواس فتلجأ النفس إلى:

أ - إجراء تعديلات مستمرة على السلوك لكي يتلاءم مع حقيقة الواقع الموضوعي.
ب - إجراء تحولات في وضعية الجسم وحركاته بشكل ينسجم مع ما يُفترض أنه واقع خارجي موضوعي.

ج - إجراء تعديل على الفكر، بما هو مفهوم معرفي عن الواقع، لا يخلو من الموهومات والتجريدات التي نظن أنها ملائمة للواقع، وذلك عبر العمل أي الممارسة التي تعيد التطابق بين الفكر والواقع من خلال تعديل هذا الفكر إذا شئت النجاح في السلوك.

د - تعديل الوقع السحري للكلمات أي للغة عبر التأويل والاجتهاد، ذلك أن لا معنى للكلمة الدالة من دون مدلول، وبما أن المدلولات تاريخية متغيرة لذلك تلجأ النفس إلى التفسير والتأويل لإعادة التطابق بين الفكرة والواقع.

إن التفاعلات الدائمة هي وسيلة الذات لضبط الفوضى الناشئة عن عدم تطابق المعلومات المتلقاة مع الحقيقة الخارجية.

يرى إيغور بوغدانوف في هذا السياق: «بأن المادة في العمق، لا يمكن إيجادها على الأقل كشكل لشيء، ماء»⁽³⁰⁾، فنحن ندرك إذاً حقل تفاعلاتها وآثارها، فالحقيقة الكوانتية تثبت بأن الواقع ليس إلا مجموعة حقول وذرات صغيرة لا يمكن تحديدها إلا متى راقبناها. وعندما نراقب الواقع فإننا لا نلاحظ إلا محصلة التفاعلات والأبعاد، وليس جوهر المادة، لذلك استنتج بوغدانوف أيضاً: «بأن حواسنا لا تنفصل عن الوجود، بل ترتبط به من خلال ظاهرة علائقية، ينتج عنها في المحصلة النهائية خلق ما هو كائن في الواقع»⁽³¹⁾.

2 - يعمل الجهاز العصبي كمنظومة خاصة تحدث فيها تحولات وتغيرات في النشاط، وهي لا تعي أصل التحولات الخارجي أو الداخلي، بمعنى أنها لا تدرك وظيفتها إلا من خلال الذات المراقبة. فلا يستطيع الجهاز العصبي مثلاً أن يميز بين الهلوسة والإحساسات الفعلية الآتية من الخارج من خلال وظيفته بالذات، بل إننا نستطيع ذلك من خلال المراقب الذي يعين موقع الجسم بالنسبة لمحيطه ويحدد خارجه وداخله.

إذاً ثمة وعي فوق الإدراك الحسي يحدد ما إذا كانت نشاطات الجهاز العصبي ناتجة عن الخارج أو الداخل، فالذات المدركة هي التي تحدّد علاقة الارتباط بين تحول حالات الجهاز العصبي والظروف المحيطة، وتؤول الهلوسات إلى فعل المراقبة وحقلها وليس إلى التجربة.

3 - بما أن الجهاز العصبي عبارة عن وظائف وآليات فيزيو - كيميائية لاواعية بحد ذاتها، فإنه لا يمكن له أن يحدث أي نشاط تحويلي ملائم على المحيط إلا من خلال المراقب نفسه أي الذات وعالمها التقرييري وسلوكها الواعي أي من خلال النفس العاقلة للتمايزات والفروقات والأشكال.

(30) لمزيد من التفصيل راجع كتاب:

Dieu et le science Éd. GRASSET, Beyrouth, 1992, p. 115-116, 117.

(31) المصدر السابق نفسه، ص 182.

تقع مسببات السلوك إذاً من تمييزات إدراكية ذاتية تجريها النفس على ظواهر الجهاز العصبي وتدمجها في تفاعلات الجسم مع محيطه.

4 - كيف تضبط الذات المدركة وتنظم الخيارات السلوكية؟

يرتكز الإدراك على المعطيات الحسية من خلال وساطة الجهاز العصبي ولكن الإرادة الواعية تقوم بتحديد السلوك الملائم وتدرجه مع القيمة الأخلاقية المعيارية، فينتج عن ذلك سلوك هادف ضمن المعيار الأخلاقي المطلوب إجراؤه.

لذلك تستند النفس في إجرائها عملية المطابقة بين غائية السلوك والقيمة الأخلاقية المعيارية إلى تثبيط بعض النشاطات العصبية والمعطيات الحسية وتنشيط بعضها الآخر، أي أن الذات تحدد للدماغ متحركة ثقافية إبداعية تنفي نشاطاً وتقبل آخر.

نخلص إلى القول: بأن الحقيقة الموضوعية لا يمكن إدراكها وتعقلها إلا من خلال الذات أي من خلال حقولنا الإدراكية المختلفة باختلاف الثقافات والحضارات وبأن هذه الحقول تشكل أنماطاً في تناول الحقيقة ضمن ظروف تاريخية محددة. فالعلم مهما تنوعت تقنياته واختلقت وسائله هو عبارة عن كشف للحقائق من خلال الأدوات المعرفية المتنوعة التي تستخدمها الذات في إدراكها للواقع. ومن هنا فكل الثقافات علمية بمعنى أنها ناتجة عن حقول إدراكية مرتبطة بالذات، أما اختلافها فهو في الحقيقة يركز دائماً إلى انعاء الموضوعية والفاعلية والانسجام الكوني، سواء كان ذلك عن طريق الوحي أو البحث العلمي⁽³²⁾.

٧ - الوعي والوعي الذاتي والنفس

ما هو الوعي؟ ما هي هذه الظاهرة التي تدمج بين المادة والنفس؟ هل الوعي مجرد تداخل وتشابك وظائف مليارات الخلايا العصبية التي تنتج عنها آليات عقلية؟ وبما أن التعقل ظاهرة لامادية ولها ما فوق تحديد، فهل تنتج المادة عقلاً وكيف؟

يُعتبر الوعي إدراك المعطيات الحسية وعلاقاتها «المنطقية» وتعيين السلوك الملائم لها. وتمتلك كل الكائنات «وعياً» محدداً بالفطرة ومتفاوتاً في الشدة والأهمية، وإذا كان الحيوان ذا قدرات فطرية عصبية لاواعية غالباً، فإن الإنسان يملك وحده الإرادة الحرة ووعي الوعي أي وعي الذات لذاتها، لذلك كان الوعي الإنساني يعني في ما يعنيه وجود الكينونة والشخصية؛ الأنا؛ لأن وعي الذات لذاتها لا يمكن أن يكون إلا فردياً، أناً، فآليته تخص الإنسان كهُوية فردية، نشعر بها، ونجري من خلالها تعديلات على سلوكنا كي يتلاءم مع الظروف المحيطة.

1 - الدماغ والوعي الذاتي وعلاقتهما بالنفس

نعود إلى السؤال الأساسي، هل الوعي هو مجموعة النشاطات العصبية التي يؤكد العلماء على كونها لاواعية أصلاً؟ وما هي الذات؟ لا شك في أن الوعي يستند إلى النشاطات العصبية في سياق تلقّي المعلومات وتوليّفها، ولكن النشاطات العصبية نفسها تخضع لعملية مراقبة وضبط وتنقية من قبل الذات أي الكينونة التي تضبط وظائفية الجهاز العصبي وتقننها، وأن تحديد هذه الماهية لا يزال لغزاً يصعب حله. وفي مقارنة عقلية بين الدماغ الإنساني والحاسوب الآلي، نجد أن هذا الأخير يقوم بعمليات دقيقة تشبه الوعي غير أنها عمليات خاضعة لعقل مبرمج

(32) راجع المصدر 17، ص 161.

خارجي يعيّن سيروراتها وغاياتها، بينما يخضع الوعي الإنساني والدماغ لعقل داخلي مبرمج للنشاطات العصبية والذهنية... وإذا كانت الوراثة ومرموزاتها الجينية المبرمجة هما محدّدتان لسبل انبثاق الوعي والعقل، فكيف يمكن لأليات غير واعية (النشاطات العصبية الموروثة) أن تُنتج وعياً يبدو منفصلاً عنها بوضوح؟ إن الجواب لا يزال يخضع لتجاذبات علمية وفلسفية تستند إلى المستوى الأخلاقي والإيديولوجي. فالعمليات العصبية اللاوعية تختلف ألياتها عن آلية الوعي نفسه وإن كانت هذه الأخيرة تستند إلى الأثر الحسي.

إن السلوك الإنساني وعلاقته بالمعطيات الحسية ليسا انعكاساً شرطياً آلياً للواقع الخارجي، بل إن الكينونة الواقعة فوق تحديدات المعطيات الحسية هي التي تربط وتضبط حيثيات السلوك بأهدافه وغاياته. تتخطى متحركة الوعي والعقل الشروط المادية للظواهر في فعل إبداعي يغيّر السلوك ويعدّل تاريخ الصيرورات المادية عبر التدخل المباشر للإنسان أي للذات الحرة الواعية.

ويحاول بنفيلد⁽³³⁾ ضبط آلية ووظيفة الوعي الإنساني مشيراً «إلى أن التشكيلة الشبكية المنشطة (formation réticulée activatrice) تعمل على التنسيق بين مراكز المراقبة الدماغية، والمنطقة السفلى من الجذع المخي وما تحت المهاد، أي أنها ليست مركزاً ثابتاً لليقظة والوعي بقدر ما هي مركز أساسي للتنظيم بين مختلف مناطق الدماغ التي تؤدي بمجموعها وظيفة الوعي»، فماذا يعني أن تؤدي بمجموعها وظيفة الوعي إذا كانت كلها لاواعية أصلاً؟ إن الأمر يعني أن ثمة علاقات وارتباطات منطقية بين مناطق الدماغ وخلاياه تخضع لعقل مبرمج هادف ينتج وعياً من الوظائف اللاواعية مؤكّداً، أن احتكام السيرورات العصبية إلى وعي يضبطها ومنفصل عنها مشروع علمياً.

وفي محاولة لفهم الإدراك وتفسير ألياته ورجوعه النهائي إلى مفهوم الوعي، يتساءل فون فوستر: كيفية الإدراك وليس ما ندركه؟⁽³⁴⁾ فهو يعتبر عن حق بأن الأشياء موجودة كخصائص تمثيلية أكثر منها خصائص أشياء، وهي خصائص علائقية، بمعنى أنها تنتج عن تفاعلات الذات مع الواقع، وأن ما من مدركات أو معطيات حسية إلا وتخضع للتنقية والمراقبة الدماغية والنفسية.

ويؤكد التصوير الطبقي الدماغى في سياق آخر، إمكانية تحديد مكان حصول النشاطات العصبية وارتباطاتها، ولكنه لا يثبت كيف تعمل، بينما يعتبر شانجو: «بأن تركيبات الخلايا العصبية التي يملك بعضها مستويات عالية من النشاط التلقائي المتذبذب، هي التي تشكل جوهر الخيال وابتكار الفرضيات»⁽³⁵⁾. إن إمكانية إجراء مطابقة بين الظواهر العصبية والظواهر الفكرية، هي عملية استدلالية تجريدية لا يغيب عنها البعد الأخلاقي أو الإيديولوجي ذلك أنها لا تقول لنا كيف تنتج النشاطات العصبية فكراً؟

كما أن اعتبار بعض العلماء وجود الوجدان في اللحاء الدماغى، لا يعني أن يكون نشاطه واعياً من تلقاء نفسه، وأن مجال الوعي ضيق جداً، وأن أكثر السياقات العصبية هي لاواعية.

(33) أنظر: كتاب بالفرنسية لديريك دانتون:

L'Emergence de la conscience, Éd. Flammarion, 1995, p. 31.

(34) راجع المصدر 17، ص 140.

(35) راجع المصدر رقم 32، ص 175.

ولو سلمنا جدلاً بأن الوجدان نفسه وعاء نملاؤه بالقيم والمثل من التاريخ والمعاش ثم نضعها كلها في الذاكرة لنستخدمها لاحقاً في ضبط السلوك، فإن متحركة الوعي الدائمة وتغيير قيم الوجدان وتعديلها باستمرار أحياناً، يجعل الأمر خارجاً عن نطاق الوجدان نفسه أي يردّه إلى علة منظمة وضابطة.

فمن أين إذاً يأتي الوعي والوعي الذاتي؟ وهل ينشأ الوعي من ضرورات التطور؟ يعتمد ديريك دانتون على الداروينية⁽³⁶⁾ في تعليقه لنشوء الوعي، ويعتبر أن ظاهرة الوعي تعني في ما تعنيه تعديل الرغبات والميول بهدف البقاء الأفضل والنجاح في الحياة، وهو يرى أيضاً بأن ظهور الوعي كان حاجة ضرورية للبقاء الأفضل وحفظ النوع. وبما أن الملكات العقلية والجمالية، قد تطورت بشكل هائل فإنها هي أيضاً تصبح في هذا المنظور خاضعة لسيرورات البقاء الأفضل والتكيف الناجح.

يغفل استقراء دلالات التطور المعنى الكامن في آليات انبثاق الوعي والعقل وتطورهما معاً؛ فلقد سار التطور البشري خطوات هامة نحو ولادة الثقافة ونمو الدماغ والقدرات العقلية، وهي ولادة ذهبت مذهب الدقة في التنظيم والضبط الداخلي والتوازن أكثر من ولادة مرتبطة بضرورات البقاء الأفضل.

فلماذا كان الذكاء العملي والتكيف مع الظواهر الخارجية يوفران نجاحاً سلوكياً للكائن، فما هي ضرورات الإبداع والفن والموسيقى في البقاء الأفضل بالمعنى البيولوجي؟ وكيف يكون الموقف الوجداني والانفعالي والتأملي أمام الموت مساهماً في البقاء؟

يتّضح مما سلف أن التطور يسير باتجاه إلغاء الفوضى داخل المادة، وبلورة أنساق تنظيمية ووعي وعقل داخل الكائنات من خلال تنشيط متحركة الجهاز العصبي ونموه المتدرج، وهي أمور، إما أنها قد ظهرت بالصدفة أو بحكم الضرورة (أي بحكم منطق علاقاتها الداخلية المادية عشوائياً) أو أنها تعكس وجود عقل خارجي مدبر ينظم التطور ويحدد السياقات الواعية. أما علة وجود هذا العقل الخارجي فتقع خارج نطاق بحثنا وأنها من مستلزمات الواجب العقلي والمنطق.

ولكي ندرك ماهية الوعي، يجب أن نعيّزه عن النوم، فالنوم يرتبط بحاجة الجسم إلى تركيب بروتينات ضرورية لحالة اليقظة. إذ يؤكد العلماء على أن حالة التعب ضرورية لإثارة إنتاج ناقلات اليقظة وهي حساسة جداً على حالة الإرهاق والتعب، وناقلات اليقظة هي الكاتيكولامين وناقلات النوم هي السيروتونين.

يتربط النوم واليقظة ترابطاً عضوياً فالحياة وحدة الاضداد وليس صراعهما ونفي أحدهما للآخر. يتضمن الحلم في سياق آخر اختفاء الرقابة والإرادة وتناسق عناصر الوعي، وهو يعني «إغفاء النفس» مما يعني ضرورة لجم السلوك العضلي، لأن لا ضابط له أثناء الحلم، لذلك وكما لا نحقق الحلم فعلاً فإننا نفقد المقوية العضلية غالباً (إلا في بعض الحالات التي يسير النائم فيها مما قد يعرضه لخطر مميت).

يقضي الإنسان الذي يبلغ 70 سنة من العمر 6 سنوات منها في الأحلام. فما هي غاية

(36) راجع المصدر نفسه، ص 174 - 175.

الأحلام؟ لم يستطع العلماء تقديم إجابات واضحة عن هذا السؤال. ولماذا تظل الصور المستدعاة في الأحلام مشوشة وغير متلازمة على عكس حالة اليقظة والوعي؟

اختلف العلماء حول هذه المسألة وتنوعت آراؤهم، إذ يرى البعض أن الحلم ذو دور في تشكيل المسارات العصبية المقفلة في مرحلة النمو، أي أنه ذو وظيفة بنائية⁽³⁷⁾ من ناحية، وأن الدماغ يخلق عالمه الخاص من خلال الأحلام، إذ يسمح الحلم بانبثاق صور تعبر عن المكبوتات بشكل مموّه أو واضح من ناحية أخرى.

وإذ يعتقد البعض الآخر، بأن الحلم ناتج عن إثارات فوضويّة هائلة في المسارات العصبية للجذع المخي، فإن نظاماً ما يفرض نفسه في النهاية، ويأتي من الشخصية أو البنية الذهنية أو النفس.

ويعتبر فرانسيس كريك: «بأن الأحلام هي أفكار طفيلية «حشو» تتم تنقيتها أثناء النوم التناقضي»⁽³⁸⁾. ولكن هذه الفكرة يرفضها البعض لأننا غالباً ما نتذكر أحلامنا التي تتكرر أحياناً، ذلك أن تكرار الأحلام هو إلحاح على الظهور لبعض الصور أو السياقات العصبية ولا يمكن أن تكون حشواً أو سياقاً طفيلياً.

قد يساهم الحلم في القضاء على بعض التهويمات الواعية أو الأفكار الملازمة، أو على الأقل التقليل من شأنها، ولكنه ليس من المستبعد أبداً أن تكون الأحلام ذات وظيفة إبداعية، كأن تقدم حلولاً لبعض مشاكلنا، كما لو أن الوعي يمنع تقديم الحلول لها! تستعيد الأحلام أحياناً مسارات عصبية تؤدي إلى سلوك مرغوب فيه ولكن بشكل مموّه أو مرموز أي أنها تحقق أهداف النفس بطريقة معقدة غير شفافة تتطلب تأويلاً وتفسيراً غير عاديين.

تطوي الأحلام مبدأ اللاوعي الفرويدي وتتخطاه، لتصبح محققات وفاعلات في تحقيق نشاطات كثيرة بنائية وإبداعية فتتعدى تنفيس الرغبات الجنسية المكبوتة كما يقول فرويد، لتصل إلى حدود استنباط الحلول للمسائل الملازمة، أضف إلى ذلك أن البعض يعتبر الأحلام نشاطات للجهاز العصبي عشوائية وغير منتظمة.

يشير عالم النفس هوبسون في صدد الوعي: «بأن كل خلية عصبية من العشرين مليار خلية تحدث مع عشرة آلاف أخرى على الأقل مئة مرة في الثانية... يبدو لي معقولاً جداً، أن يعي جهاز بهذا الشكل نفسه وأنه يستطيع ذلك»⁽³⁹⁾. لا يفسر هذا البيان الشمولي كيف يتم الوعي ولا كيفية تحول الحديث المرموز كهربائياً بين الخلايا والمشابك إلى معنى ومضمون!!

ويعرّف معجم هاشيت الفرنسي الوعي، بأنه الإدراك الحسي والإحساس للذات يكونهما الإنسان عن ذاته وجوده، أو الحدس الذي تملكه النفس عن ذاتها والأشياء المحيطة بها، وهو أيضاً من معاني المعرفة والإلمام بالأوضاع.

وإذا كان الوعي يحتاج إلى الجهاز العصبي ليرتكز عليه في الإدراك الحسي والقيام بالسلوكيات الملازمة، فإن الرابط العضوي بين الخلايا العصبية والوعي لا يمكن ضبطه وإدراك ماهيته الحقيقية. تقوم الحركة الإرادية مثلاً على ورود أحاسيس إلى الدماغ عبر

(37) راجع المصدر نفسه، ص 127.

(38) راجع المصدر نفسه، ص 128.

(39) راجع المصدر نفسه، ص 121.

المستقبلات الحسية ثم يعيد الدماغ الجواب على شكل حركات إرادية في العضلات الملائمة، ولكنه يفعل ذلك بعد تدخل الإرادة الحرة أي مشروع القيام بالحركة. ويكمن اللغز في الإرادة نفسها التي تعتبر مفهوماً مجرداً أو رغبة وليس مادة فكيف ترتبط تشريحياً بالخلايا؟ وكيف يؤثر المفهوم على النشاط المادي؟

لقد ظل وعي الذات لذاتها ووجودها وعلاقة النفس بالدماغ لغزاً لم يستطع التشريح والفيزيولوجيا فكّ أحجيته، وانقسمت الآراء بين الواحدية (Monisme) وهي تمثل فكرة أن النفس والدماغ شيء واحد غير منفصل، وبين الثنائية (Dualisme) التي ترى بأن النفس منفصلة عن الجهاز العصبي وتؤثر عليه سلباً أو إيجاباً.

يلاحظ جاكسون في هذا السياق: «بأن ظاهرة الوعي في حدّها الأقصى قد أدّت إلى انبثاق الاستبطان، أي إلى وعي الذات لذاتها، فثمة عين داخلية، تراقب نمط التفكير نفسه، الأمر الذي يكشف الدوافع وأسبابها، ويحوّل الفكر إلى شفافية أمام الذات»⁽⁴⁰⁾. تصبح الذات إذاً في هذا السياق ذاتاً وموضوعاً في آن معاً.

تقع الإشكالية في إدراكنا لكيونة وعي الذات لذاتها، فالوعي يركز على الجهاز العصبي أما وعي الذات لوجودها ووعياها فأمر يصعب فهمه وإدراك آلية اشتغاله. إن مسألة الرقابة الذاتية على التفكير كظاهرة تضبط الوعي، جعلت من الكيونة الإنسانية مركباً من وعي ذي منشأ مادي ورقابة خارجة عنه تعيّن له حدوده وتضبطه وهي ذات منشأ غير مادي. ولو سلمنا جدلاً بالفكرة القائلة بأن الجهاز العصبي وارتباطاته منظومة ذاتية مورثة وتعيد إنتاج نفسها وتراقب ذاتها في الوقت نفسه. فالسؤال يبقى أن هل بمقدور المادة إنتاج قدرات غير مادية؟ وكيف ينشأ عن الآليات اللاواعية وعي داخلي يراقب كل شيء؟

يثير هنري أتلان التساؤلات حول هذا السياق رافضاً فكرة الثنائية المادية - الروحية فيقول: «بأن الأمور التي تحصل هي نادراً ما نرغب فيه، وأننا لا نشعر بإرادتنا الواعية إلا من خلال جزء منا، وأننا نجري ذلك من إرادتنا وكيّتنا. وهذه الكلية لا يمكن معرفتها، وهي تشكل لغزاً يصعب حلّه... إن الإرادة الحقيقية هي لاواعية، فالأشياء تجري من خلالنا، والإرادة تكمن في خلايانا بالتحديد وفي مستوى تفاعلاتها مع الوسط الخارجي»⁽⁴¹⁾.

إن وجود الإرادة أو الرغبة في سلوك معيّن هو الحد الفاصل بين الجوهر المادي أي النشاط العصبي والجوهر النفسي أي المفهوم الذي يتحدّد من إصداره الأمر، وإذا كان الإدراك هو فهم النشاط أو الأثر المادي الذي يعتبر انعكاساً لوجود الفعل الإرادي - النفسي، فإن فهم نقل أمر الإرادة إلى الخلايا العصبية مسألة أخرى لا يمكن فهمها إلا بالاستدلال العقلي، ذلك أن تداخل الجوهر النفسي في الأثر المادي أمر مدهش ومحير.

إن الفكر هو ترتيب وتنسيق الصور الذهنية وتركيبها واستنباط الأحكام من تنظيمها في انساق محدّدة، كما أن شرطاً يفرض نفسه في العلاقة بين الفكر والدماغ هو النظام أو التنظيم، أي خضوع الفكر نفسه والدماغ لانساق فيزيائية معيّنة. فلو كانت الفوضى والعشوائية هي آليات اشتغال الجهاز العصبي، لما كان ممكناً التفكير أو الوعي، ينتج عن ذلك أن التنظيم علة عمل العنصرين معاً الفكر والدماغ. فما هي علة هذا التنظيم؟ هل هي الصدفة أم التدبير

(40) راجع المصدر السابق، ص 25.

(41) انظر المصدر رقم 17، ص 192.

المسبق؟ سنعود إلى هذه الاسئلة لاحقاً.

لا بد لنا من تسجيل بعض الملاحظات هنا في هذا السياق، تدعّم فكرة توجيه الذات أو النفس للسيرورات والنشاطات العصبية:

أ - يستطيع الفكر أي العمليات الذهنية تغيير الوظيفة العصبية، فقد يوجّه الانتباه الذاتي على نحو ينشط فيه وظائف دماغية كانت لا تزال ساكنة حتى لحظته، وهي عملية واعية وإرادية والدليل نجده في التجربة. فمن أين تأتي إرادة التغيير (من السكون إلى حالة النشاط) علماً بأن العمليات الذهنية قد لا تؤول بالضرورة إلى سيل إحساسي خارجي؟

ب - أُجري تسجيل كهربائي للنشاط الدماغي الواعي عند القطع فتيين بأن نشاطاً ما واعياً يظهر عند رؤية الفأر أو حتى بدون أي إثارة حسية أو ظاهرة مشابهة⁽⁴²⁾.

إذا ثمة حالتان متشابهتان في النشاط العصبي، الأولى إدراكية حسية، والثانية تلقائية. ينبغي لنا التوقف قليلاً عند الإثارة التلقائية أي من دون أي تحريض حسّي وهي تقوم على استرجاع الصور الذهنية من الذاكرة، لنسال ما هي أليتها وعلتها؟ هناك عدة احتمالات ممكنة وهي:

أولاً: أن تكون الصور الذهنية علّة للإثارة الداخلية فهو أمر مفهوم. ولكن لماذا ترد في لحظة محدّدة؟ وإذا كان الحيوان يرغب في لحظة ما استدعاءها من الذاكرة أو تركيبها (المخيلة) فكيف تتمثّل رغبتة (إرادته) في نشاط عصبي؟ أي كيف ترسل الذات أمراً لاسترجاع الصور وما هي آلية ذلك؟ فالإرادة تنبثق من الكلية أو الكينونة وهي مفهوم مجرد، فكيف يحوّل المفهوم الإرادة إلى نشاط عصبي؟

ثانياً: أن يكون الاستدعاء عشوائياً أو تلقائياً أي من دون تدخّل الإرادة. ونحن نعلم أن الإرادة ليست بحد ذاتها نشاطاً عصبياً، بل إن محصلة قرارها وتأثيرها المباشر على الجهاز العصبي يشكلان نشاطاً عصبياً. إن اعتبار الاستدعاء عشوائياً يجعلنا نقع في العبثية، ويجعل جهازنا العصبي يعمل على هواه دون وعي أو رقابة ويجعل الحياة استحالة. وتصبح الهلوسة في هذه الحالة قاعدة للنشاط العصبي وليست استثناء أو تشويشاً. ينتج عن هذا أننا لا نستطيع عندئذ التمييز بين النشاط العصبي الناتج عن المعطيات الحسية وبين الهلوسة والهذيان.

ثالثاً: إذا كانت الإرادة غائبة، وعملية استدعاء الصور الذهنية عشوائية، فإن مجموعة الاضطرابات النفسية تصبح إشارات دماغية تكوينية دون سبب أو مبرر. أي أن نردّ الاضطرابات النفسية وأزمات العلاقة مع المحيط إلى التكوين الدماغي وفيزيولوجيته العشوائية (وإن تكن بعض الأمراض كالصرع مثلاً ناتجة عن اضطرابات وظيفية تكوينية أحياناً).

رابعاً: تدلّ التجربة الملموسة على أن الإرادة تُجري إثارة في النشاط العصبي، ولكننا لا نعرف كيف يتم ذلك!

ج - لا تحتاج الصور الذهنية إلى لغة، وهي تؤثر على الأعضاء الداخلية حتى إنها قد تسبّب أمراضاً عضوية، وأما استحضار الصور الذهنية في لحظة ما ينتج عن أمرين: الإرادة الواعية بهدف تحقيق سلوك محدّد، أو عن اضطراب النفس في علاقتها مع المحيط وفي هذه الحالة تكشف النفس عن عجزها عن خلق التوازن بين الواقع وطبيعة الصور المتمثلة في الذهن، وتبدو

(42) انظر المصدر رقم 33، ص 35.

النفس أو الذات مغتربة عن الواقع.

د - لدينا إحساس داخلي قوي بأننا نعي ذاتنا، ولنا قدرة هائلة على تحصيل معاني من النبضات العصبية. كما أن الصور الذهنية التي نستدعيها من الذاكرة أو نركبها بحرية فهي مستقلة عن المعطيات الحسية المباشرة، وهي تتحصل من دمج واشتغال نشاطية خلايا عصبية متعددة ومحددة المواقع. غير أن الأهم هو أن كليتنا أي ذاتنا تستطيع خلق المفهوم من نشاطية الخلايا العصبية دون العودة إلى المعطيات الحسية وذلك بفضل الشخصية أو الذات الواعية، إن الانتقال من الصور إلى المفاهيم يمرُّ عبر تشذيب الاحاسيس والإغناء والإبداع في طريقة تعاقب الصور وطريقة دمجها.

تعكس ارتباطات الصور الذهنية وتعاقبها متحركة النشاطات العصبية الدينامية. هناك إذاً دوائر وظيفية من الخلايا المتداخلة ومنجدة بطريقة متحركة، بحيث تسمح النبضات الكهربائية المفاجئة بتشغيل ارتباطات الخلايا ضمن تركيبات مختلفة ومتعددة باختلاف وتعدد الصور الذهنية.

يتضح إذاً، أنه مهما كانت مسألة تشابك وتداخل الخلايا العصبية ومتحركيتها متعددة، بحيث تؤدي إلى احتمالات وظيفية هائلة، فإنه يبدو ضرورياً وجود رابط واع بين هذه الارتباطات أي مبرمج يحدّد طريقة تعاقب الصور وترابطها وانجدها، وتشغيل المناطق العصبية المطلوبة أعني رسم الاتصالات العصبية بطريقة تؤدي إلى الفعل المباشر والسلوك الملائم. هذا الرابط الواعي هو الذات أو النفس، وهو كما سنرى، إما أن يكون خارج الترابطات العصبية ومن طبيعة جوهرية مختلفة، وإما أن يكون متحصلاً من تعقيد الارتباطات العصبية بحدّ ذاتها، أي أن تخلق شبكة الخلايا العصبية وعيها من تلقاء نفسها، وهذا ما يردنا إلى الاحتمال الأول لأن القانون الواعي لا بد أن يأتي من علّة واعية مبرمجة. إن القول بقدرة الخلايا العصبية الوراثية والفيزيولوجية على تركيب متحركات النشاطات الخلوية بالاستناد إلى معطيات الواقع الخارجي التي تعدّها بالصور والاحتمالات الإدراكية، فهذا صحيح، ولكن العلاقة بين الواقع والجهاز العصبي ليست علاقة بين فعل وردّة فعل، بل إن ثمة ذاتاً تراقب العلاقة وتضبطها وتوازن بين المعطيات الحسية وحدود السلوك، أي أن هناك ذاتاً تبرمج وتحلل وتشغل متحركات الخلايا العصبية ونشاطاتها. إن القاسم المشترك بين كل العوامل الفيزيولوجية العصبية ونشاطاتها ومتحركاتها وتركيباتها الخلوية هو وعي يعكس الكلية، الكينونة، وقراراتها الحرة وهي ما نعنيه بالنفس التي تشكّل جوهرًا يتحرك في المادة ويحدّد آليات ضبط العلاقة بين القوانين الفيزيائية والمعاني المتحصلة منها والسلوكيات المطلوبة.

ويستنتج روجرز في هذا الصدد فيقول: «في هذا العالم من المعاني العقلية والروحية يستطيع هذا العلم أن يبحث جميع المسائل التي ليس لها معنى لدى السلوكي؛ الغايات والأهداف، والقيم وفهم الذات... والتصورات الشخصية»⁽⁴³⁾.

تضم حقائق الحياة مجموعة من المفاهيم كالفكر والأخلاق، وهي حقيقية كحياتنا البيولوجية، وأن الترابط بين الفكري والدماغي والروحي هو ترابط يعيّن مفهوم الذات والشخصية الإنسانية، ويذهب عالم الأعصاب سيبزي إلى القول: «وفقاً لتصوراتنا الجديدة عن الوعي، تصبح القيم الأخلاقية والأدبية جزءاً مشروعاُ جداً من علم الدماغ، إذ لم تعد تُتصور

(43) انظر المصدر رقم 1، ص 88 - 89.

قابلة لأن تُحصَر في فيزيولوجيا الدماغ... نرى أن القيم الذاتية نفسها تمارس تأثيراً سببياً قوياً في وظيفة الدماغ وسلوكه،⁽⁴⁴⁾ إلى أن يضيف «والفعالية السببية لفكرة أو لمثل أعلى تصبح حقيقة، كأي حقيقة أخرى أو الخلية أو نبضة العصب»⁽⁴⁵⁾.

تؤثر النفس إذاً على فيزيولوجيا الدماغ والجهاز العصبي من الإدراك الحسي الأولي، وصولاً إلى التجريد والوعي والوعي الذاتي، الأمر الذي يعني قدرة الجواهر والمفاهيم الروحية على التأثير المباشر على المادة وصيروراتها.

توضيحاً لهذه المسألة، أجرى العالم بنفيلد⁽⁴⁶⁾ تجربة حرّض فيها الدماغ والمنطقة الحركية كهربائياً عند أحد المرضى، فادت إلى تحريك إصبعه، ولكن هذا المريض كان يجيب دائماً: لست أنا من يفعل ذلك! إنه أنت؛ فلقد كان يدرك الفرق بين الحركة الناتجة عن إثارة كهربائية خارجية، والحركة الناتجة عن إرادته الحرة الواعية. لذلك يرى جون أكلس، من خلال بحثه عن العلاقة التأثيرية بين النفس والدماغ، أن النفس تؤثر على مراكز صغيرة جداً في الدماغ والجذع المخي، خاضعة لفيزياء الكم، وأن الظواهر العقلية ذات وجود مستقل ومغاير عن عالم المادة والطاقة⁽⁴⁷⁾. ويذهب في هذا السياق أيضاً إلى اعتبار: «أننا نعمل دائماً كفكر ونستخدم الدماغ من أجل ذلك، لذلك كانت السياقات الذهنية هي البادئة في الفعل»⁽⁴⁸⁾.

نخلص من كل هذا، إلى أن النشاطات العصبية هي لواعية بحد ذاتها، ولكن كينونتنا أو كلمتنا تشير إلى أننا واعون؛ إذاً هناك جوهر ما واع، يدخل الوعي على النشاطات العصبية أو يؤثر فيها ويجعلها تعي ذاتها، وهذا الجوهر هو النفس البشرية العاقلة، خصوصاً أن فيزياء الكم تؤكد من خلال النظريات العلمية، بأن الكون حقل واسع من المعلومات تتبادلها الكائنات على أنواعها، ويتوسطها وعي محقق وضابط له ما فوق تحديد.

2 - الوعي والخلية الحية

تقوم الخلية الحية بمجموعة هائلة من التفاعلات البيوكيميائية والفيزيائية شديدة التنظيم والتعقيد؛ إن حيثيات وغائيات الخلية واضحة من خلال الضبط الدقيق للصيرورة الحية، وتبادل المعلومات بين الجزئيات العضوية في توازن مرهف ومحسوب بدقة، «إن الفوضى ليست حالة طبيعية للمادة، إنها مرحلة سابقة على انبثاق نظام أكثر تطوراً وتنظيماً»⁽⁴⁹⁾.

تتسم العلاقات بين الكائنات والموجودات بالتكافل والتكامل والتناسق والتنظيم، ثم إن توازناً دقيقاً جداً يثبت تماسك المادة ويؤمن استمرارها وبقائها. تعمل الخلية الحية باستمرار ضمن صيرورة وعبر آلية تعيد إنتاج عناصرها دائماً تستهلك الطاقة، وتصنع مواداً كيميائية، تخرج الفضلات، تقاوم عدوانية المحيط الخارجي لتتكيف مع الظروف وتفرز أجساماً تساهم في المناعة، تتلون الخلية وتتحدّق أمام كل المستجدات، فهي «تهدف» إلى البقاء فتتزوّد بدقة التنظيم والقدرة الهائلة على اكتساب الخبرة من الواقع. تعمل الخلية إذاً في انتظام فتبدو وكأن

(44) انظر المصدر رقم 1، ص 89.

(45) انظر المصدر رقم 1، ص 93.

(46) راجع المصدر رقم 33، ص 208.

(47) راجع المصدر رقم 33، ص 41.

(48) راجع المصدر رقم 33، ص 208.

(49) راجع المصدر رقم 30، ص 63.

«وعياً ما» يدير دقة حياتها ويوجه عملياتها المرسومة بدقة والمضبوطة بشكل مرهف، فهل تكون الصدفة أصلاً لها؟ وهل يمكن للصدفة أن تخلق نظاماً دقيقاً بهذا الشكل؟

يقول العلماء إنه لكي تتجمع مثلاً وتنتظم وتنسجم الخُمائر الخلوية (وعدها ألفان في الخلية) لتشكّل خلية واحدة يلزمها احتمال $\frac{1}{10^{1000}}$ أي واحد على عشرة وإلى جانبها ألف صفر، الأمر الذي يعادل الصفر. ويذهب كريك في هذا الصدد إلى القول: «إن كل رجل مسلح بكل المعرفة المتوفرة لدينا حتى الآن، سوف يؤكد بأن الحياة معجزة، إذ يلزمها شروط كثيرة للتحقق... ولكي يتحقق تركيب النيكلوتيدات التي تكون ر - ن - ا (ARN) المستخدم في الخلية، ينبغي إجراء محاولات تركيبية خلال 10^{15} سنة (عشرة وإلى جانبها خمسة عشر صفراً)⁽⁵⁰⁾. إن معادلة بسيطة، لاحتمال تركيب الخلية بالصدفة يعادل الصفر.

ولو سلّمنا جدلاً بأن الخلية قامت بالصدفة ونهضت، ولكن عملياتها الداخلية الدقيقة تهدف إلى استمرارها، لذلك فهي تحتاج إلى مبرمج يملئ عليها سيروراتها فكانت المورثات (gènes)، ومن أين وكيف أتت هذه المورثات؟ إن القدرة على استنباط التنظيم المرهف والمحسوب والتكيف المتلائم مع الظروف المحيطة هي «وعي» ينجم عن «عقل» داخلي يتحكم في مسارات الجزئيات العضوية، وإلى القارئ الكريم بعض الأمثلة على «الوعي» الكامن في تجديد بنيات الخلية الحية والمدى التنظيمي الذي تعمل من خلاله كل الكائنات الحية:

أ - تتبادل الخلية الحية مع المحيط الخارجي الطاقة، ويؤمن هذا التبادل استمرار النظام داخل الخلية وتجديد مكوناتها.

ب - تحوّل الخلية المواد الغذائية إلى جزئيات يمكن استيعابها ثم تعيد تركيبها وفقاً لحاجاتها.

ج - التناسل (reproduction): يتم عبر دمج الأعراس (gamètes) وتشكيل البويضة الملقحة لاحقاً التي تنقسم وتتكاثر لتشكّل الجنين.

د - لكل خلية برنامجها الخاص، وهي تعرف تماماً متى تنمو، ومتى تنقسم ومتى تعمل ومتى تموت.

هـ - تنتج الميتوكوندريات (mitochondries) الطاقة في الخلية مستخدمة تفاعلات بيوكيميائية متعاقبة ومتراصة، تؤدي إلى مردود للطاقة يعادل 40% أي أكبر من مردود الطاقة في الآلات الحرارية حيث يبلغ 10 - 20% فقط. ومردود الطاقة في حالة التنفس أي استخدام الأوكسجين هو 2815 كيلو جول وفي حالة التخمر هو 167 كيلو جول.

و - تنتج الخلية الحيوانية الماء بينما تستهلكه الخلية النباتية، وتستهلك الخلية النباتية ثاني أوكسيد الكربون بينما تفرزه الخلية الحيوانية، وتستهلك الخلية الحيوانية الأوكسجين بينما تنتجها الخلية النباتية.

يتحصل من هذا الأمر، أن الكون يقوم على تكامل وتكافل كل الكائنات وخلق حلقة بيولوجية بيئية متوازنة، وأن أي خلل يصيب هذا التوازن البيئي يقضي على الكائنات ويعمل على انقراضها.

(50) راجع المصدر رقم 30، ص 69.

ز - إن حالة التوازن الدائم بين الإفرازات والتحويلات والاستهلاك الخلوية تؤمن ثباتاً وديمومة لمكونات الجسم العضوي.

ح - يتم الإلقاح بفعل التقاء الحيمن بالبويضة الناضجة، حيث يلتصق الحيمن على غشائها بعد أن يتعرف كيميائياً على مركبات الغشاء البروتينية، ثم يدخل البويضة التي تفرز المواد الضرورية لإقفال الغشاء ومنع دخول أي حيمن آخر ومنع تعدد الحيامن في البويضة.

إن التجاذبات الكيميائية والتفاعلات هي آليات أي أنها وسائلية تحقيق غاية معينة للخلية. ولكن الغاية هي حفظ التناسل وبقاء النوع، فهل تعي الخلية هذا الأمر أم أنها الصدفة؟

لما كانت عملية الإلقاح أو أية عملية أخرى عضوية تقوم على سلسلة متعاقبة ومتراطة من التفاعلات الكيميائية والفيزيائية فلا بد أنها تسير إلى غاية محددة واضحة مسبقاً، «والخلية لا تركب أي شيء، وفي أية لحظة كيفما كان... والجزئيات الخلوية ينبغي لها القدرة على بث واستقبال الإشارات والنضات، إعطاء الأوامر والانصياع لها»⁽⁵¹⁾.

ط - تشكّل الخلية مصنعاً كيميائياً معقداً ومحكم التنظيم والتنسيق وذا غاية واضحة. لقد أدركت الخلية غايتها في عملية تجديد ذاتها فانشأت أول ترميز وراثي يؤدي وظيفته بدقة ليشكّل العضويات والمواد الضرورية والبروتينات من ربط تعاقب آلاف الحوامض الأمينية حيث يضعها في مكانها المضبوط والمحسوب. فالمورث إذاً ينقل مرموزاته إلى الخلية لتشكّل البروتينات أساس الحياة. فهل الصدفة محتملة هنا؟ وإذا كان النجاح في تحقيق الحياة قد تمّ بعد محاولات عديدة فاشلة وتجريبات غير ملائمة، فإن المحاولات وإعادة التركيب في حلقات جديدة ناجحة ما هي إلا وعي يوظف التجربة لصالح بقاء الخلية.

ي - تتم صناعة البروتين من الحوامض الأمينية عبر تفكيك المرموزات الوراثية ومطابقتها مع اسم الحامض الأميني المطلوب في الريبوسومات، إذ إن طريقة تعاقب ثلاثة نيكلوتيدات تشكّل مرموزاً وراثياً يحدد اسم الحمض الأميني المطلوب لتشكيل البروتين. ولا شك في أن الـ ARN الناقل يستطيع التعرف على الشيفرة الوراثية بواسطة مضاد للشيفرة، ولكنه كيف يعرف مفهوم المطابقة بين الشيفرة والحمض الأميني.

كل شيء مرسوم ومحسوب، من مطابقة الحمض الأميني مع المرموزة الوراثية التي يرسلها الـ ARN المرسل وصولاً إلى تعيين وتخصيص وظيفة البروتين في الخلية.

تنقسم الخلية الحية، وينقسم معها الخيط الحلزوني المضاعف للـ ARN (يحدد عدد الصبغيات في النواة) ولكن الخلية الجديدة يجب عليها إعادة التضاعف إلى الخيط الحلزوني لتحافظ على عدد الصبغيات نفسه. لذلك تقوم خميرة محددة (أنزيم) هي - ADN polymérase - بإعادة ربط النيكلوتيدات المتممة بالخيط الموجود مما يؤدي إلى تشكيل الخيط الثاني المتمم للأول فتعود المضاعفة الأساسية كما كانت عليه في الخلية الأم. إلا أن الخميرة المذكورة قد تخطئ مرة واحدة كل 100 ألف نيكلوتيد، مما يؤدي إلى خطأ في قراءة المعلومة الوراثية داخل الخلية، لذلك ينبغي على هذه الأخيرة: أن تتجنب الخطأ، أو أن تصححه في حال حصوله.

ولقد اعتمدت الخلية الحلّ الثاني وهو تصحيح الخطأ الذي قد ترتكبه الخميرة، إذ تعمل هذه

(51) راجع لمزيد من التفصيل حول هذه النقطة كتاب:

Recherche sur la génétique et l'hérédité, Éd. Seuil, Paris, 1985, p. 17.

الآخيرة على إزالة النيكلوتيد الخطأ، بعد أن تكون قد تقدمت قليلاً إلى الأمام في سلسلة النيكلوتيدات المركبة. ويصف أحد العلماء هذه العملية المعجزة «الواعية، قائلاً: «وهي (أي الخميرة)» «تنظر إلى خلفها، قبل أن تتقدم خطوة أخرى لكي تدمج النيكلوتيد التالي... ثم تقوم بقص النيكلوتيد الخطأ وتضع مكانه النيكلوتيد المناسب... ولكنها أحياناً لا تستطيع ذلك لأنها تكون قد ابتعدت كثيراً وتجاوزت مكان الخطأ، وفي هذه الحالة تقوم خمائر وبروتينيات أخرى تلعب دور «الدورية» *patrouille* حيث تلحق بالخميرة الأساسية، وتتعرف على الخطأ وتقوم بتصحيحه»⁽⁵²⁾.

قد تكون الخميرة الصحيحة تملك نوعاً من الانجذاب (*attraction*) الكيميائي نحو النيكلوتيد المناسب فتعود كهربائياً إلى الوراء عند حصول الخطأ، ولكن عملية القصّ بحد ذاتها ومتابعة الدورية العملية التي تعجز الخميرة عن إجرائها، تنمّان عن برمجة واعية لا يمكن للكيمياء أن تفسرها، والمدّش هو أن الخطأ في قراءة البرمجة الوراثية يحتاج إلى برمجة وراثية وتصحيحه هو أيضاً يحتاج إلى برمجة وراثية. فكيف تبرمج البرمجة الوراثية احتمال الخطأ وتصحيحه؟ وفي سياق هذا المنطق التعليلي يصحّ على البرمجة أن تكون لها برمجة وإلى ما لا نهاية.

تنطوي الخلية إذاً على تبادل دقيق للمعلومات، ومرونة هائلة في تثبيت عناصر التجدد الخلوي من خلال التوازن الدائم بين عملياتها كلها. فهل تكون الصدفة سبباً لكل هذا؟ ولا تصبح الحياة عندئذٍ مجرد سياقٍ طارئٍ ونادرٍ للغاية؟

الا يمكن أن يكون ثمة عقل مبرمج يحدّد المعلومات والقوانين الضرورية لبناء عناصر الخلية وآلية اشتغالها؟ يمكن للصدفة أن تكون سبباً ولكنه لا يمكن أن يكون منظماً بدقة لأن التنظيم يحتاج إلى عقل منظّم!

3 - الوعي واللغة

يحدّد العلماء مركز الكلام في نصف الكرة الدماغية الأيسر، وهو مركز يضم قسمين، الأول يرتبط بالتعبير أي بالحركات الصوتية والثاني يختصّ بالفهم اللغوي.

كانت اللغة كعنصر اتصال بين الأفراد التطور الأساسي الذي عكس انتقال الإنسان من الحيوانية إلى الثقافة والتمدن، ولا شك في أن الدماغ البشري قد نما بموازاة تطوّر الكلام. وإذا كان الاجتماع يشترط التبادل والاتصال، فإن اللغة شكّلت حقلاً للوعي الجماعي المشترك الذي يعيّن المعايير الواحدة، فالوعي الفردي القائم على الذاتية لا بد من أن يُدرج في وعي عام وثقافة تكون اللغة عماده الأول والأساسي.

وإذا كانت اللغة على أهميتها ليست ضرورية لإنتاج الصور الذهنية والتهويمات، فإنها ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالفكر، الأمر الذي جعل ميرلوبونتي يعتبر بأن لا فكر من دون لغة. لذلك يرى الدكتور أحمد أبو زيد: «أن من بين كل صور النشاط الذهني وأشكاله، يظل التفكير اللفظي أشدها قدرة على التعبير بدقة ووضوح»⁽⁵³⁾. فاللغة هي أداة التعبير عن الفكر وهذه هي وظيفتها الإتصالية مع الآخر أو مع الذات. لذلك كانت «الصور الذهنية والعمليات العقلية تسبق إنتاج الرسالة أو تعقبها»⁽⁵⁴⁾، فهي تقع إذاً خارج حقل اللغة بحدّ ذاته. إن اللغة هي الأصوات

(52) المصدر السابق، ص 62 - 63 - 64.

(53) راجع: عالم الفكر، الكويت، عدد آذار / مارس 1986، ص 4.

(54) انظر: عالم المعرفة، العدد 145، «سيكولوجية اللغة والمرض العقلي»، 1990، ص 16.

التي نستخدمها في نقل المعاني من شخص إلى آخر، كما كان قد ذهب إليه أرسطو الذي حدّد الكلام بوصفه نتاجاً صوتياً مصحوباً بعمل الخيال من أجل أن يكون التعبير صوتاً له معنى.

تناول علماء النفس الكلمات باعتبارها تعابير عن الكيانات العقلية والأفكار، إذ تنتقل اللغة من المتحدث إلى المستقبل، من خلال فكّ الرموز اللغوية في العقل وردها إلى معاني متعددة اصطلاحية واتصالية. ويشكّل هذا الإطار عملية عقلية تدخل في إطار علم النفس.

يرى رولان بارت في هذا السياق، «بأن الكلام هو في الأصل نشاط فردي في الانتقال والتحيين (actualisation)⁽⁵⁵⁾، فهو وسيلة الأنا في التعبير عن أفكارها من خلال استخدام رموز اللغة وتركيباتها النحوية والبلاغية.

ولكن اللغة هي أيضاً تأسيس اجتماعي ومنظومة قيم «الفرد لا يستطيع وحده خلقها ولا تغييرها، إنها في الأصل عقد جماعي، يجب أن نخضع له بشموليته، إذا ما أردنا الإتصال»⁽⁵⁶⁾.

ويعتبر تشومسكي في سياق آخر: «أن دراسة اللغة يجب أن تقوم على دراسة العقل الإنساني أولاً»⁽⁵⁷⁾، فاللغة تعكس أنماط الفكر وهي مرآته. ولكن هل أن وظيفة اللغة هي دائماً نقل الأفكار؟

إن المناجاة التي يقوم بها الإنسان بصوت مسموع، وكأنه يخلق لنفسه مستمعين خياليين تنفي هذه الوظيفة للغة. قد تلعب المناجاة أو التحدث مع الذات بالكلام المسموع دوراً في صقل الأفكار وتنظيمها وتدعيم مميزاتها، وتضعها على شكل لغة أمام النفس لتراقبها وتضبطها.

لذلك يعتبر البعض: «أن الثقافة الشفاهية تنجز انتماءً صحيحاً ومشاركة وجدانية وجماعية مع المدركات»⁽⁵⁸⁾. إن الشفاهية نمط أساسي للخطابة وهي أداة تعبئة جماعية فكرية وسياسية ذات شحنة وجدانية وانفعالية لذلك فقد ينتج عنها تحنيط الفكر الواعي. بينما تعيد اللغة المكتوبة بناء الوعي وترسيخه وتنظيم الأفكار، ولقد أنتجت الحضارات «الكتابية»، جمل بنيات الفكر الفلسفي والعلمي.

يعتقد العلماء في سياق آخر، بأن التفكير عبارة عن تناول الكلمات في الذهن، أو عبارة عن عادات حركية في الحنجرة أو حديث داخلي يظهر في الحركات الصوتية لأعضاء الكلام، أي أن التفكير هو كلام ضمني، وهذا ما تقوله السلوكية.

غير أن التجارب التي أجريت على البُكم تشير إلى أن هذه الحقيقة غير مقنعة. ويرى علماء النفس الروس، بأن اللغة والتفكير مرتبطان في الطفولة، ثم ينفصلان في سن الرشد. ويقرر فيجوتسكي صراحة بأن: «تدفق الفكر لا يصاحبه ظهور متزامن للكلام، فالعمليتان ليستا متماثلتين، ولا يوجد تطابق بين وحدات التفكير ووحدات الكلام»⁽⁵⁹⁾، أما الكلام الداخلي فهو

(55) انظر، للفائدة كتاب رولان بارت بالفرنسية:

L'aventure sémiologique, Éd. Seuil, Paris 1985, p. 21.

(56) المصدر السابق، ص 21 أيضاً.

(57) راجع المصدر رقم 54، ص 18.

(58) انظر: عالم المعرفة، العدد 182، 1994، ص 110.

(59) انظر المصدر رقم 54، ص 145.

برأي الكاتب صورة أو شكل خاص من أشكال الكلام يقع بين التفكير والكلام المنطوق، وليس مجرد النطق الصوتي للجمل.

إن الكلام الداخلي غير المنطوق يعكس أسبقية الفكرة على اللغة من حيث التسلسل الزمني، لأن الخيالي والذهني أسبق في الوقوع والحدوث من الكلام المعبر عن المعنى. هذا ما جعل جان بياجيه، يصرّح بأن الارتقاء المعرفي يحدث أولاً، ثم يتبعه الارتقاء اللغوي، أو أنه ينعكس - التفكير - على لغة الطفل.

ينمو التفكير عند الطفل من خلال تفاعله مع الأشياء والكائنات في بيئته عبر ملكات التفكير الوراثية المحددة. ويتأثر ارتقاء اللغة حسب المدى الذي تتداخل فيه هذه الأشكال من التفاعلات ولكنها لا تنمو عبر النمو المعرفي⁽⁶⁰⁾. إذ يكتسب الطفل لغته من أشكال تفاعلاته مع البيئة والطرق التربوية السائدة، وهو اكتساب يسير بموازاة النمو المعرفي والإدراكي. إلا أن الطفل يستطيع عبر المناجاة أو المحادثة المصطنعة مع الذات بشكل منطوق، تقوية ملكاته الفكرية والخيالية وتدعيم الوعي الإدراكي.

وعندما يصل الطفل إلى مرحلة ما قبل المفاهيم يرى بياجيه «أن القدرة على استخدام الرموز والصور الذهنية، تأخذ في الازدياد بشكل واضح وبسرعة كبيرة، فتزداد قدرته اللغوية زيادة هائلة»⁽⁶¹⁾.

يتطور التفكير واللغة من أصل مختلف، إذ يسير الكلام والتفكير في فترة معينة في خطوط مختلفة، دون ارتباط بينهما، ثم يتلاقيان عند نقطة معينة، حيث يصير التفكير بعدها لغوياً والكلام عقلياً⁽⁶²⁾.

ولكن وحدة الفكر واللغة نجدها في الجانب الداخلي للكلمة أي في المعنى. فالمعنى يمكن اعتباره ظاهرة كلامية وظاهرة منتمة إلى حقل الفكر، وهو يمثل وحدة التفكير اللغوي، ومن هنا الصعوبة العلمية في فصل اللغة عن التفكير.

يتضح إذاً مما ذكرنا، أن ثمة اتجاهين حول اللغة والتفكير، الأول سلوكي لا يرى فرقاً بين اللغة والفكر، والثاني يرى الفصل بينهما (اتجاه فيجوتسكي وبياجيه) ويبرز اتجاه ثالث يرى أن اللغة والتفكير مترابطان ارتباطاً وثيقاً، باعتبار أن اللغة هي الوعاء أو المظهر الخارجي الذي يتم من خلاله تقديم الفكر وتوضيحه.

ولكن يمكننا القول عموماً، إن التفكير يبدو في بعض الحالات مستقلاً عن اللغة، وإن هناك أنواعاً من التفكير مرتبطة باللغة، والبعض الآخر أقل ارتباطاً بها. إذ إن التفكير بوصفه سياقاً تجريدياً وصوراً ذهنية، يستقل عن اللغة كذلك الاتجاهات العامة للتفكير وطرائقه.

عبر دي سوسير، عن العلاقة بين اللغة والتفكير تعبيراً يعرف «اللغة بأنها مجموعة من العلاقات تعكس الأفكار وتعبر عنها»⁽⁶³⁾. فالتفكير من مفاعيل العقل الذي يربط بين الصور الذهنية ليشكل منها فكرة واحدة أو أكثر. ولكن مع ذلك نجد أن اللغة تؤثر في التفكير وقد

(60) انظر المصدر رقم 54، ص 145.

(61) انظر المصدر رقم 54، ص 146.

(62) انظر المصدر رقم 54، ص 148.

(63) انظر المصدر رقم 54، ص 151.

تغيره. فالأفراد في مجتمع ما، لا يرون العالم وعلاقاتهم المتبادلة إلا من خلال لغتهم. لذلك كانت الخطابة أو الشفافية لغة لا تفصل الكلام المشحون عن الأفكار التي ينبغي تناولها أو تصحيحها. كما أن اللغة ترتبط بالثقافة ضمن علاقة تفاعلية دينامية، فاللغة تُغني الثقافة والعكس بالعكس، ومما لا شك فيه بأن الكتابية تعيد بناء الوعي وتنظمه وتفعّل أساليبه بحيث يظهر أكثر وضوحاً وتأثيراً.

يبقى القول، بأن اللغة في مجتمعاتنا العربية والإسلامية ذات أهمية بالغة في توليف المواقف الفكرية والفلسفية. فلقد قامت لغة القرآن أساساً على تفعيل العلاقة اللغوية بين المدلولات والدالات وإحداث الترابط المعرفي بين العقل أو الوعي واللغة، لذلك اكتسبت اللغة مكانة تطويرية هائلة في تحديد علاقات المسلم بالكون والموجودات والمدرجات.

4 - الوعي والأخلاق

ما هي العلاقة بين الوعي والأخلاق؟ وهل تنشأ الأخلاق من تطور العلوم؟

إن الوعي هو إدراك الواقع من خلال الذات المدركة وهو يستخدم العقل الواسطي، ليربط المعطيات الحسية بالمعاني والدلالات، أي أنه وسيط الكينونة أو الذات في التعرف على العالم والموجودات، لذلك كان هذا الوعي فردياً أساساً، يعكس وجود الأنا أو الشخصية، ومن خلال الوعي نتشكّل كأفراد قبل أن نكون جماعات، ولكن الوعي يتم تبادلته بين الأفراد والجماعات، وتُشكل الأخلاق التأسيس الاجتماعي الذي يضبط اندراج الوعي في الثقافة ومنظومة القيم. تنشأ الأخلاق من توحيد النظرة الجماعية إلى الكون ومن الانطباعات الفلسفية التي يكونها الأفراد عن وعيهم ووجودهم، وتوجّه الأخلاق سلوكنا في الحاضر والمستقبل.

وإذا كانت العلوم هي مجموعة التقنيات والوسائل التي تستخدمها الجماعات في تطورها ورفقها، فإن الأخلاق هي الثقافة الموجهة للعلوم والضابطة للعلاقات الاجتماعية بين الأفراد.

تشكّل الأخلاق والثقافة أداة اللحمة الداخلية بين الأفراد وهي تشمل العادات والأفكار والتقاليد والمعتقدات الدينية، بحيث تؤسس كلها مرموزات تبادلية اجتماعية. فهي تأمل وتفكر بالموجودات واستنباط فلسفة للتفاعل معها، إنها انفعال الإنسان مع الوجود وليس مجرد وعيه به. ذلك أن الوعي تقنية نفسية وعصبية يؤدي إلى العلم، ولكن هذا الأخير لا يقول لنا كيف يجب علينا أن نتعامل مع هذا الكون، فهو لا يحدّد الغايات الإنسانية.

ويؤكد ماتورانا⁽⁶⁴⁾ في هذا السياق: «بأن الأخلاق هي التي تحدد استخدام المعرفة كحقل مفاضلة بين الأشياء، فإذا كان العقل تقنية فالأخلاق موقف وجداني في سياق التفاعل مع الأشياء، لذلك كانت الأخلاق بمعنى ما، رغبات النفس التي تنفصل عن مدرجات الجهاز العصبي بحد ذاتها. فقد نرفض أو نقبل المعطيات الحسية بحسب تلاؤمها مع منظومة القيم التي يعتمد عليها الإنسان في حياته، وقد يحدّد الإنسان أحياناً سلوكاً يخالف فيه ما تأسست عليه المعطيات الحسية ما لم تكن مرغوبة من النفس وأخلاقيتها.

يؤوّل الفصل بين الوعي والأخلاق إلى تكوينهما المختلف، فالوعي أداة كشف الوجود والأخلاق هي التأمل في الوجود ورسم قواعد للعلاقات الإنسانية المتبادلة ضمن سيادة هذا

(64) انظر المصدر رقم 17، ص 172 - 173.

التأمل. من هنا نفهم بروز الفساد الاجتماعي كظاهرة تقع ضمن الانحراف الأخلاقي ولا ترتبط بالوعي أو بالعقل، ولم تنجح الفلسفة العقلانية في منع الفساد لأنها لا تطال المستوى الأخلاقي الذي له ما «فوق تحديد» مادي. لذلك تتسم الذات السياسية كما نشهدها اليوم بانفصال وعيها عن أخلاقيتها، فهي قد تبدو عقلانية متنورة بالفكر والوعي ولكنها يطبعها فساد مستشري.

ينتج الوعي إذاً عن حقول الإدراك الذاتية وظروفها التاريخية، وكل الثقافات موضوعية علمياً لأنها ناتجة عن حقول إدراكية ذاتية وخاصة، فالثقافة هي وسيلة الذات المدركة في كشف الكون والوجود.

أما المفاضلة بين الثقافات فتخضع لحقل القيم والأخلاق ولا علاقة للعلم بها مطلقاً. تتحصل الثقافات كموضوعات إدراكية بشرية من ظروفها التاريخية والطريقة التي تستنبط منها العلاقات مع الوجود، وهي علمية بمجملها، ولكننا قد نقبلها أو نرفضها وفقاً لانسجامها أو عدم انسجامها مع منظومة الأخلاق التي نحددها. ومهما تكن طريقة تناولنا للواقع الموضوعي والنتائج المترتبة على إدراكنا له، فإننا نُجري اختياراً حراً لرسم علاقتنا بهذا الواقع.

لا يكفي العلم لتحديد أخلاق الأفراد، لأن الأخلاق لها ما فوق تحديد على الرغم من ضغوطات الواجب العقلي، وأن القبول والرفض لخلاصات الاستدلال العقلي يخضعان لرغبات النفس. لا تؤول تعابير المفاضلة الأخلاقية تجاه سلوك الآخرين إلى النتائج المنطقية لهذا السلوك بقدر ما تعود إلى رغبتنا في تحقيق هذه النتائج أي إلى المستوى الأخلاقي.

لدى البشر رغبة أساسية في تحقيق وحدة الإنسان الثقافية ترتكز على إمكانية تحقيق أخلاقية واحدة، أي على خلق حقل مشترك من التجارب والخبرات والفكر. ولا يرتكز تحقيق هذه الوحدة الأخلاقية على تأسيس معرفي - علمي بل على مشكلة فن الحياة، وبناء نظرة شمولية إلى العلاقات الإنسانية والوجود. ولا يعود الفساد هنا وفي هذا السياق إلى خلل علمي - معرفي، بل إلى انحراف أخلاقي عن مبدأ السوية البشرية ككمال مطلق. فالأزمة الكونية الحالية تنتج عن تغليب مبدأ القوة كنهج يسيّر المجتمعات، وهو مبدأ «أخلاقي» قيمي ولا يرتبط بالعلم بوصفه تقنية اكتشاف قوانين العالم.

فالعلم لا يقول لنا مثلاً إن على المجتمعات النامية أن تخضع سياسياً للدول «المتقدمة» بل إنها غطرسة القوة والرغبة في السيطرة وهما مستويان أخلاقيان. تحدد الأخلاق السياسة والعلاقات بين الدول بما هي انعكاسات للمصالح والرغبات البشرية الخاصة.

يستقيم الوعي المعرفي الغربي في هذا السياق على تمركز تقني وتقدم هائل في وسائل الإنتاج، ولم يستطع هذا التقدم أن يبني علاقات متكافئة وعولمة تبادلية بين المجتمعات الغربية والنامية بل تنهض هذه العلاقات على أخلاقية استشرافية، تسلطية، تنفي الآخر وتقهره متخذة صفة العلمية في المظهر فقط. ذلك أن المركزية الحضارية الغربية ترتكز في فهمها للآخر على مفاهيم غير علمية وغير أخلاقية:

١ - إذ إنها تعتبر الحقل الإدراكي الغربي بالمعنى الاجتماعي - المعرفي وحده الموضوعي عمّا عداه، مع أن كل وعي إنساني هو متشكل أيضاً من خلال حقل إدراكي تاريخي علمي هو الآخر.

ب - تلغي الاختلافات ولا تقبل التعدديات والتنوعات وتلتصق تهمة اللاتاريخية بالآخر.

ج - تمنع الحضارات الأخرى من إمكانيات العولمة والتعميم الثقافي عبر العداء العرقي والسياسي وليس العلمي.

د - تنتهج القوة كعامل حاسم في رسم العلاقات بين الشعوب، وتمنع احتمالات قيام نظام عادل وحرّ ومساواتي، الأمر الذي يوقع الآخر في منظومات فكرية تعصبية انفعالية، تضع حواجز وعقبات أمام تحقيق أخلاقية إنسانية موحدة المعايير.

أما الوعي العربي - الإسلامي فهو ينهض على مجموعة عوامل تعيّن له حدوداً ضيقة وهامشاً غير فسيح للمبادرة والإبداع والسوية وهي:

1 - السلبية والتخلف التي يُسم بهما الغرب الذات الإسلامية والعربية تعسفاً وقهراً.

2 - الإحباط السياسي المزمّن الناتج عن العجز الداخلي والقهر المتواصل في الداخل والخارج.

3 - إن المواقف الاستشراقية تعتبر العنف بنيوياً في الوعي العربي - الإسلامي، وتتعامل معه على هذا الأساس، مع أن هذا العنف هو وليد عنف الغرب بالذات.

4 - إن الإرهاب كمقولة تسم الوعي العربي - الإسلامي ليست بنية نفسية سادية عند المجتمعات النامية منذ نشأتها الأولى، بل إنه ارتكاس سياسي يعكس منطلق فرض السيطرة والقوة على الذوات المقهورة.

5 - إن تعظيم الذات والعدوانية المفرطة في التعامل مع الآخر، يؤولان إلى القهر المزمّن الداخلي والقهر الخارجي المغلف بالعلم والتطور والمدنية، فلا يستطيع الوعي الفردي والجماعي في مجتمعاتنا أن يميّز بين التطور العلمي، وممارسة الإرادة الجماعية للمجتمعات النامية سواء بالعنف المباشر أو بالفقر.

6 - يواجه بعض المثقفين العرب قصور الوعي التاريخي العربي - الإسلامي بنقده، هو في الحقيقة مازوشية وقهر للذات، ظلناً منهم بأنهم يقدمون عظيم الفائدة لبلورة وعي علمي تقدمي.

يبقى القول أخيراً، بأن تحقيق الوحدة الثقافية الأخلاقية أو تحقيق تعددية ثقافية تقوم على الحوار الديمقراطي، يشترطان قيام إرادات حرّة خلّاقة، وتكافؤاً مزمناً وعدالة بين الأمم والشعوب.

إن الأديان كمعتقدات متأصلة عند الشعوب والأمم هي منظومات أخلاقية تسعى إلى تحقيق هذه الوحدة الإنسانية الثقافية، وإن الأفضلية التطورية سوف تكون للمعتقد الديني أو الحضاري الثقافي الذي يملك مقوّمات وإمكانيات العولمة الحقيقية القائمة على استيعاب الآخر ضمن منظوماته الفكرية والفلسفية.

إن شرط نهوض أخلاقية عالمية واحدة هو وضع كل الشعوب والأمم في ظروف متكافئة وعادلة وحرّة، حتى تمكن المفاضلة الأخلاقية بين حقول الوعي والإدراك المتعددة والمختلفة لدى كل الشعوب.

IV - خلاصة

لا يمكن أن يكتمل الكلام عن الوعي والعقل لأسباب عديدة منها، أن الجهاز العصبي والدماغ لم تُكتشف كل طاقتهما وإمكاناتهما كلها، كما أن تعريف الوعي والعقل هو تعريف وظيفي يطال الكلية والشمولية، فالعقل يُحوّل المدركات إلى معانٍ ومجردات ومفاهيم، فلا يُفهم ولا يُدرك موضعه في الدماغ، كما أن النفس البشرية ذات قدرات وملكات تتجاوز الماديات والمدركات ولا تقتصر وظيفتها الدماغية على الإدراك الحسي والارتكاسات الحسية بل تتخطاها إلى الخيال والرغبة والإرادة الحرة الواعية والذاكرة وغيرها من الملكات العقلية التي ينبغي دراستها وكشف آلياتها وماهيتها.

إن تحقيق الوعي المعرفي الفعلي يشترط ربط المحسوسات باللامحسوسات، وكشف كل جوانب الإدراك الإنساني الواعي وتلواناته الذهنية والخيالية والعقلية والنفسية.

ويمكننا تلخيص البحث في فصول أساسية هي:

1 - إن الجهاز العصبي والدماغ عبارة عن مليارات الخلايا العصبية التي تعمل من خلال النبضات كهرو - كيميائية، وإن السائلة العصبية (مسارات النبضات) إما أن تكون ناتجة عن إثارة خارجية تتلقاها الحواس وتنقلها إلى الدماغ حيث تُحلّل وتُفسّر، وإما أن تكون ناتجة عن صور ذهنية أو تفكير يثيران نشاطاً في الخلايا العصبية نفسها، فالإرادة الواعية الحرة تستطيع إثارة نشاطات متنوعة في الجهاز العصبي. إن الصعوبة التحليلية لعلّة السيالات العصبية تكمن في أنها تنتج صوراً ذهنية كما أن هذه الأخيرة تنتج سيالات عصبية هي الأخرى.

2 - إن الإدراك مرتبط بالذات المدركة، ذلك أن الحواس هي أدوات الكينونة أو الشخصية ولا يمكن التعويل عليها في الإدراك لأنها تعمل كالمصافي أي أنها لا تستطيع فيزيائياً التقاط كل المحسوسات، لذلك كان أي زعم معرفي حول الواقع الموضوعي مرتبطاً بالذات العارفة، تراقب الذات ذاتها فتعيّن حدود الجسم ونشاطات الجهاز العصبي نفسه وتعيد توليف المدركات عبر العقل، كما أن الذات هي التي تميّز بين النشاط العصبي الناتج عن الإثارة الخارجية أو الإثارة الداخلية. ثم إن الذات تعيد ردم الهوية الناتجة عن الخلل المتحصّل من الاختلافات ما بين الواقع الموضوعي المفترض والتشويش الذي تقوم به الحواس كأدوات قاصرة على تلقي كل المعلومات الخارجية؛ وذلك عبر تصحيح وضعيات الجسم وتعديل المسلكيات الحركية لكي تتلاءم مع الواقع الخارجي الموضوعي.

إن الجهاز العصبي لا يستطيع أن يُجري أي تحوّل أو تغيير في المحيط الخارجي، إلا من خلال الذات أو المراقب، لأن هذا الجهاز غير واعٍ، والذات واعية وإن كان ينبغي عليها أن تستخدمه.

3 - تشكّل الثقافات المختلفة والمتعددة حقولاً إدراكية للبشر مرتبطة بظروفهم التاريخية المحددة، لذلك يمكن اعتبار كل الثقافات على اختلافها وتلوانها ذات صفة علمية لأنها تمثل حقولاً إدراكية مختلفة ومرتبطة بالذات. وأن المفاضلة في ما بينها تخضع لحقل الأخلاق والقيم وليس للعلم بحد ذاته.

4 - إن الوعي هو فهم الذات لمدركاتها الحسية، وتحليل ظواهرها ومعطياتها من خلال السيرورات العقلية والذهنية التي تُناط بها مسؤولية تفسير الظواهر الإدراكية، بهدف إجراء سلوك ملائم يؤدي إلى النجاح والفائدة. ثمة إذًا علاقة دينامية متحركة بين الذات والواقع

الموضوعي، ولا يمكن اعتبار الإدراك ارتكاساً سلوكياً صرفاً بل هو يعبر عن متحركة الذات المدركة، وإمكاناتها وقدراتها العقلية والنفسية.

5 - أدت ظاهرة الوعي إلى انبثاق الاستبطان أي وعي الذات لذاتها ووجودها، أو أن وعي الذات لذاتها يسير بموازاة الوعي نفسه ويقع على عاتق الكينونة أو النفس.

ثمة إذا عين داخلية تراقب باستمرار عمليات الوعي وتضبطها، كما أن الوعي بحد ذاته لا يكفي لتفسير وعي الذات لذاتها، لأن الطفل مثلاً، خلال مراحل نموه، يكون بداية واعياً لما حوله، يتلقى المحسوسات ويتدرج في فهمها، ولكنه يبقى في حالة «ذهان» نفسي (أي اندماج الذات في الآخر)، وهي حالة تسبق مرحلة انبثاق الأنا أي الكينونة الواعية لذاتها.

إن القول بأن الكينونة هي الكلية الإنسانية التي تشكل مجموعة النشاطات العصبية الدائرية، فهذا احتمال لا يحل مشكلة تظهر الكينونة كإفصال واستقلال عن النشاطات العصبية نفسها، ذلك أن الذات أو الكلية تؤثر على السلوك والنشاط العصبي باستقلالية تامة وعينية، مما يعني أن الكينونة ذات صفة مجردة وغير مادية ومرتبطة بالنفس التي تشكل جوهرها يتحرك في المادة ويؤثر فيها سلباً أو إيجاباً، لذلك رأى العلماء ومن خلال التجارب بأن النفس والمثل حقائق جوهرية مؤكدة كحقيقة الخلية والأعصاب.

تستطيع النفس أن تجري تعديلاً على السلوك عبر الإرادة الواعية الحرة لتحقيق أهدافها، أما الرابط العضوي بين النفس والدماغ فيظل لغزاً محيراً، مع أننا نعي تماماً بأن النفس تحرك النشاط العصبي وتوجهه، أي أن الجوهر اللامادي يؤثر في المادة بالتاكيد ولا نزال بانتظار كيفية إنجاز هذه العملية !!

6 - تعتبر الخلية الحية مصنعاً كيميائياً معقداً، يشهد على دقة التنظيم وعلى إعجاز وإبداع في تفاعلات وارتباطات عناصر الخلية، ذلك أن سيرورة النشاطات الخلوية وفيزيولوجيتها التي تنتج الطاقة وتستهلكها ضمن توازن عجيب، ثم تقوم بتركيب عناصر الخلية من خلال ترجمة المرموزات الوراثية، إنما تعكس وعياً ما، غير أعمى فهو ديناميكي متحرك ومتكيف مع الظروف، مستنبط لعلاقات تديم وتجدد عناصر وآليات الخلية الحية.

فكيف ندرك الخلية عملية استمرارها وتجديد عناصرها؟ هل هو وعي غير واع؟ أم أن ثمة قانوناً عقلياً يحكم منطق عملها وما هي علته تالياً؟

7 - لا يحدد الوعي الأخلاق، بل إن الأخلاق هي التي تعين غايات العلم وأهدافه وإنها هي بالذات منظومة فلسفية توجه السلوك الإنساني، وتصل الإنسان بالطبيعة والكون، وتربط الأجهزة المعرفية بالمعاني والدلالات حتى تتمكن النفس من إجراء السلوك الملائم للمضمون الأخلاقي المطلوب تحقيقه.

لقد ارتكبت السلوكية كمنهجية مادية خطأ فادحاً، عندما اعتبرت الإنسان مجرد آلة ذات خصائص فيزيو - كيميائية فقط، مما أدى إلى تبسيط منهجي ينفي وعي الذات لذاتها والإرادة الحرة الواعية والحرية والذكاء العملي، وهي ميزات تراتب بين الإنسان والحيوان والآلة.

إن مقارنة دماغ الإنسان بالحاسوب الآلي، أدت إلى سلسلة من المحاولات الفاشلة في تقليد قدرات الدماغ البشري، وفي كل الأحوال حتى لو استطعنا صنع حاسوب آلي هائل يماثل الدماغ في قدراته ومدركاته، كان يحسن ويتفعل يحب ويكره، فإن الواجب العقلي يحتم استنتاجاً، هو أن

ثمة مبرمجاً عاقلاً يحدّد له ويعيّن القدرات والاهداف، إلا إذا كان هذا الحاسوب قادراً على أن يتوالد من تلقاء نفسه أو يتناسل؛ إن العقل المبرمج هذا يقع خارج الحاسوب الآلي. إلا يصح القول إذاً بأن عقلاً مبرمجاً أزلياً يحدّد صيرورات المادة والخلية والدماغ ويملي عليها كلها المعلومات والقوانين المذهلة.

إن التنظيم والتعقيد في الأجهزة لا يمكن أن يتطورا من الصدفة والعشوائية بل من وعي وعقل، وإن كنا لا ندرك ماهيتهما الحقيقية.

وإذا كان الجهاز العصبي كما يذهب إلى القول ماتوراناً⁽⁶⁵⁾، منظومة ذاتية الإنتاج والتشكّل أي تعمل كمنظومة تنتج آلية عملها من تلقاء نفسها من خلال قدرات تنظيمية هائلة ومعقدة وتخصص خلوي فطري فقط أو فطري - اكتسابي معاً، فإن هذه المنظومة لا بد أن تحتاج إلى برمجة وراثية تتيح لها هذه الصيرورة. فمن أين لها البرمجة الوراثية؟ وإذا كانت هي التي تصنع برمجتها الوراثية الأساسية فكيف تصنعها دون برمجة مسبقة إلى ما لا نهاية؟

ثم إذا كانت الصدفة سبباً فكيف تحولت الصدفة إلى قانون أبدي؟ إن النجاح المفترض بعد سلسلة محاولات فاشلة متعددة ينم عن سياقٍ وإعٍ متكيفٍ لا يمكن للتفاعلات الكيميائية وحدها أن تفسره.

نخلص إلى القول بأن الواجب العقلي يفترض وجود جوهر مغاير للمادة، هو الذي يضع البرامج والقوانين والأطر التنظيمية للمادة والخلية الحية معاً. لذلك يستنتج إدوار ميلن قائلاً: «أما العلة الأولى للكون في سباق التمدد... فأمر إضافتها للقارئ، ولكن الصور التي لدينا لا تكتمل من غير الله»⁽⁶⁶⁾ ومضيفاً «وبما أن الحقيقة غير المادية الوحيدة هي العقل... فلا بد إذاً من أن تكون المادة من خلق عقلٍ أزلي الوجود، وهذا الكائن هو الذي نعنيه بعبارة الله»⁽⁶⁷⁾.

بينما يؤكد ويلر: «أن الحياة لم تأت اتفاقاً... أن ميكانيكا الكم قادتنا إلى أن نأخذ بجديّة وجهة النظر المعاكسة تماماً، وهي أن المراقب لازم لخلق الكون، لزوم الكون نفسه لخلق المراقب»⁽⁶⁸⁾.

ولكن، بما أن الكون والمادة كانت لهما بداية، فهذا يعني أن شيئاً ما كان موجوداً على الدوام، فالعدم لا يُنتج إلا العدم، والكون لا يمكن أن يكون ذلك الشيء الذي كان موجوداً على الدوام، لأنه كان للمادة بداية. معنى ذلك أن أي شيء وجد دائماً هو شيء غير مادي. فإذا كان العقل هو الحقيقة الوحيدة غير المادية، فهو ذلك الشيء الذي وجد دائماً، ولا بد من أن تكون المادة من خلق عقلٍ أزلي الوجود.

هذا ما جعل أمرسون يقدم لنا النصيحة التالية: «إياك أن تفوت آية فرصة لمشاهدة أي جميل، لأن الجمال حُط بيد الله»⁽⁶⁹⁾.

(65) انظر المصدر رقم 17، ص 162 - 163.

(66) راجع المصدر رقم 1، ص 64 - 65.

(67) راجع المصدر رقم 1، ص 64.

(68) راجع المصدر رقم 1، ص 68.

(69) راجع المصدر رقم 1، ص 78.